رواية

فعل ماضي

مي عبدالباقى

مؤسسة يسطرون للطباعة والنشر والتوزيع

رئيس مجلس الإدارة

عماد سالم

المدير العام

أحمد فؤاد الهادى

مدير الإنتاج

أحمد عبد الحليم

الطبعة الثانية
الكتاب : فعل ماضي
المؤلف : مى عبدالباقى على
تصنيف الكتاب : رواية
تصميم الغلاف : محمد عطية
إخراج عام : أحمد عبد الحليم
المقاس ١٤ × ٢٠
رقم الإيداع : ٢٥٧٧٨ / ٢٠١٧
الترقيم الدولى : 2 - 557 - 776 - 977 - 978

العنوان : المكتبة والمطبعة : ٣ ش صفوت - محطة المطبعة شارع الملك فيصل - الجيزة

التليفون : ٠١٢٢٩٣٠٠٠٢٩ - ٠١١٥٧٧٦٠٠٥٢

Email : yastoron@gmail.com

موقعنا على الفيس بوك : مؤسسة يسطرون لطباعة وتوزيع الكتب

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

إهداء

أهدي هذا الكتاب إلى روح أبي النقية، فبرغم أنك لم تكن حاضراً في حياتي ولكنك دائم الحضور في قلبي ووجداني.

أهديه أيضـــاً إلى أمي البطلة التي عانـــت كثيراً في هذه الحياة وطالما ساعدتني وســـاندتني لأكون بأفضل صورة ممكنة..... شكراً لكِ.

وبالتأكيد

إهداء إلى زوجي لوقوفه بجانبي وتشجيعه الدائم.

إهداء خاص

إهداء إلى أصدقائي الذين ساندوني كثيراً ليخرج هذا الكتاب بأحسن صورة.

شكراً لنهلة التي ألهمتني فكرة هذا الكتاب

وإنجي التي طالما غمرتني بالإيجابية كي أكمل ما بدأت.

شكر خاص للفنان والكاتب أحمد الدهان على مساندتي بآرائه الفنية القيمة.

مهمة ماضي الدسوقي

«في حياة كل منا أوقات فارغة بلا طعم أو رائحة، تسرق أجزاء من روحك خلسة فلا تشعر بحجم المأساة إلا بعد فوات الأوان. تألف الوضع ولكن لا تشعر بالراحة أبدا، فتفقد الحياة حينئذ معناها.. تصبح الدنيا باهتة ضبابية وإذا حاولت النظر إليها تتألم عيناك فتفضل حالتك الفارغة عن الألم الذي شعرت به فتعود إليها طوعاً، ولكن يبقى السؤال هنا: هل نحن من نصنع هذه الحالة أم هي من تصنعنا؟»

الإعلان

«مطلوب متطوعون من الرجال فقط فوق سن الستين عاماً لتجربة مستحضرات تجميل جديدة، فمن يرغب في الاشتراك برجاء الاتصال على رقم ٠٢.....»

قرأ «ماضي» هذا الإعلان في الجريدة التي يقرؤها كل صباح منذ أن توقف عن العمل. اندهش من هذا الإعلان المقتضب الذي لا يحمل أي تفاصيل، مجرد جملة قصيرة مصحوبة برقم هاتف، ثم منذ متى أصبحت مستحضرات التجميل للرجال؟!

على حد علمه فمستحضرات التجميل مقتصرة على النساء فقط، فكر في تجاهل الإعلان كلياً وقلب الصفحة، ولكنه عدل عن قراره في اللحظة الأخيرة، فمنذ أن تقاعد عن العمل وهو وحيد بائس يشعر بملل شديد، هو الذي لم يتزوج قط؛ لذلك لا يوجد لديه أولاد أو أحفاد يؤنسون وحدته، أو على الأقل زوجة تشاركه ما تبقى له

مـن عمـر، بعـد أن رحـل أغلـب أهلـه عـن عالمنـا، وأختـه الوحيـدة هاجـرت منـذ زمـن بعيـد مـع زوجهـا، وانقطـع بينهـم الاتصـال منـذ مـدة طويلـة وهـو وحيـد تمامـاً، بمعنىٰ آخـر لا يوجـد لديـه مـا يخسره فالوقـت متوفـر بكثـرة والملـل يقتلـه، ويمكـن أن يكـسر هـذا الروتـين القاتـل بخوضـه هـذه المغامـرة الصغـيرة، إذا جـاز اعتبارهـا مغامـرة مـن الأسـاس، ولكـن في حيـاة مثـل حيـاة «مـاضي» أي تغيـير بسـيط يعتـبر مغامـرة كبـيرة.دارت كل هـذه الأفـكار في رأسـه حتىٰ أمسـك أخـيراً بالهاتـف واسـتقر قلبـه عـلىٰ الاشـتراك في هـذه التجربـة.

كان ميعـاد المقابلـة بعـد يومـين، كـما قالـت لـه سـكرتيرة «الميـكاب أرتيسـت» عـلىٰ حـد قولهـا، سـألته عـن وظيفتـه فأجابهـا، ثـم حـددت لـه موعـدا للمقابلـة يـوم الأربعـاء، أي بعـد يومـين مـن الآن. لم يفهـم في البداية مـاذا تعنـي ب «ميكاب أرتيسـت» حتىٰ فهـم مـا تقصـده مـن سـياق الـكلام، ثـم منـذ متىٰ أصبـح لـدىٰ هـذا «الميـكاب أرتيسـت» سـكرتيرة!!!

عـلىٰ حـد علمـه «الحـلاق» كان يقوم بحلاقه شـعر السـيدات والرجـال ووضـع المكيـاج وتزيينهـم جميعـاً؛ لذلـك كان يطلـق عليـه «المزيـن» ولم يتوقـف دوره - المزيـن ليـس مـاضي- عنـد هـذا الحـد، بـل إنـه أيضـاً كان يعالـج أطفالهـم كلـما طلبـوا منـه

ذلك دون تردد أو تقاعس أو تخاذل من جانبه، وكل هذا المجهود يقدر بقرش صاغ واحد فقط لا غير.

***

في اليوم التالي كان الحماس يغلبه والأفكار تتدفق في رأسه بلا توقف، فبالرغم من أنه لا يعلم ما كنه هذه التجربة بالضبط، أو ما هو المطلوب منه ولكنه متحمس لها بشدة، مثل الطفل الصغير الذي يسرق الحلوى دون علم والدته و يلتهمها في نهم، فهو يستمتع بطعم الحلوى ويستمتع بطعم المغامرة كذلك، «ماضي» يشعر أنه سرق هذه اللحظة من الحياة دون علم منها بعد أن خبأت منه كل الحلوى والملذات منذ زمن بعيد وتركته في إهمال وحيدا، ولكنه رغماً عنها وجد قطعة صغيرة من الحلوى، وينتظر يوم الأربعاء بفارغ الصبر كي يلتهمها بنهم، حاول يومها أن يقضي يومه الممل كالعادة، فهو يسكن في منزل فسيح، (فيلا) كبيرة بإحدى المناطق الراقية، ولكن حجم هذا المنزل الكبير كان نقمة ليس نعمة بالنسبة له، فكلما نظر حوله يجد الفراغ والسكون يسكن كل جزء من أجزاء المنزل، ويشعره بالبرد القارس حتى في أيام الصيف؛ فالبرودة تأتي من روحه ليس من الهواء في الخارج،

يشعر أنه منزل أشباح، حتى خادمه العجوز «محمود» هادئ جداً لا تكاد تشعر بوجوده، هو الوحيد الذي يؤنس وحدته .حتى بعد أن استغنى عن جميع مساعديه، لم يستطع الاستغناء عن «محمود»، ليس فقط لأنه يخدمه ويساعده؛ ولكنه يحب طيبته وروحه النقية و«محمود» أيضاً يحب «ماضي» ويكن له كل الاحترام والتقدير، ودائماً ما يتحدث عنه بكل خير.طلب «ماضي» من» محمود» أن يحضر لهما الإفطار مثل كل يوم، فدائماً ما يشاركه «محمود» الإفطار على المائدة نفسها.كان «محمود» يستحي في البداية من الجلوس مع سيده على الطاولة نفسها، ولكن مع إصرار «ماضي» المستمر وافق «محمود» على طلبه أخيراً.في البداية كانوا يتشاركون الحديث في مواضيع مختلفة لكن مع حياتهم المملة التي لا تحمل أي جديد قلَّ الحديث حتى أصبح معدوماً..

يجلسان كل يوم لتناول الإفطار أو الغداء في صمت تام. ينهمك «محمود» في الأكل ويقرأ «ماضي» الجرائد من باب العادة لا أكثر، فالأخبار أصبحت غاية في الغرابة على كل حال.بعد الانتهاء من الإفطار لم يجد «ماضي» شيئاً يفعله، ظل ينظر لحوائط المنزل في أسى، فهي تشعره بالاختناق

كلما رآها حوله. بالرغم من أن منزله أنيق وأرضيته رخامية فخمة حتى الأثاث الكلاسيكي المرصوص بعناية بالغة بألوانه البنية المريحة للعين، والحوائط زاهية الألوان تتناسق مع ألوان الأثاث في نعومة وانسيابية، والنافورة العملاقة في بهو المنزل تبعث الراحة النفسية مع صوت هدير مائها العذب.. لو دخلت منزله لأصابتك الدهشة من فرط جماله وإتقان تصميمه، لقد استعان «ماضي» بأكفأ المصممين في شركته كي يصمموا له هذا المنزل، ولكن بالرغم من هذا الجمال الخلاّب لم يعره «ماضي» اهتماما لقد اعتادته عيناه مع الوقت، وأصبح يكره صعود السلم كي يصل إلى غرفة نومه، فالسلم يؤلم مفاصل ركبته بشدة، حتى أصبح الصعود والنزول ثقيلا على قلبه. لم يعد «ماضي» يرى حوله سوى الحوائط الخرسانية التى تجثم على قلبه. حاول أن يفكر بطريقة إيجابية أكثر، وهوّن على نفسه بأن غداً يوم جديد وأحداث جديدة تخلخل مجرى مياه حياته الراكدة، فآثر أن ينام مبكراً حتى يأتي اليوم التالي سريعاً ويذهب إلى «الميكب أرتيست»؛ ليفهم ما يفعله هذا الرجل بالضبط، وماذا يريد منه وهذا ما حدث بالفعل.

جاء يوم الأربعاء، فاستيقظ في وقت باكر وهو يشعر بنشاط لم يعتد عليه في الآونة الأخيرة. أخيراً بعد زمن طويل لديه شئ يفعله، فهو كان في الماضي مهندساً مجتهداً غاية في النشاط مشغولا طيلة الوقت، يعلم كل صغيرة وكبيرة تخص مهنته، دؤوبا جداً حتى تمت ترقيته في فترة قصيرة، وأصبح مديرا لقسم التصميمات في إحدى المصانع المرموقة في القاهرة الكبرى، يرجع ذلك لكفاءته وتميزه في مجاله بالرغم أن هذا نادر الحدوث في مصر - أن تحصل على امتيازات بسبب كفاءتك- ولكنه كان هو ماضي هذه الحالة نادرة الحدوث، يمكن أن نطلق عليه نابغة في مجال الهندسة الميكانيكية دون مبالغة. كان يطور من نفسه كثيراً فظلت الترقيات تتوالى، والإعارات إلى دول أجنبية وعربية تنهال عليه. سافر بلادا كثيرة لأغراض تخص العمل. نظرياً زار أغلب بلاد العالم، لكن فعلياً هو لم ير سوى قاعات المؤتمرات والمصانع التي تتشابه في الكثير من البلدان، يمكن القول إنه زار هذه البلاد ولم يزرها في الوقت نفسه. أنشأ شركة صغيرة مع أحد زملائه وهو لم يكمل الأربعين بعد، ونتيجة لعلاقته الجيدة مع الكثير من العملاء تطورت الشركة مع الوقت، وأصبحت من أكبر شركات التصميم في هذا المجال وفي مجال الهندسة عامة، لم يكن لديها شهرة

عالمية أو محلية لعامة الشعب ولكن كل من يعمل في مجال الهندسة يعرف من هو المهندس «ماضي الدسوقي» ويتمنى في يوم من الأيام العمل تحت إدارته. استمر الوضع سنين طويلة على هذا المنوال، «ماضي» في قمة الانشغال بعمله ومستقبله، وكان نصب عينيه هدف واحد هو نجاح شركته وانتشار صيته والحصول على المال الوفير، فلم يكن لديه وقت حتى لدخول المرحاض كما يقولون، فهو من اجتماع إلى آخر، شكاوى الموظفين، طلبات العملاء وهكذا..

***

مرت السنين وقد استهلك كل طاقته فلم يعد قادرا على العطاء، فقرر بيع حصته في الشركة والتقاعد، ولكن بعد فترة من المكوث في المنزل لم يتحمل الوضع، فهو لم يعتد ذلك، وإكراماً له عمل كمستشار لدى أكبر الشركات في ذلك الوقت بدوام جزئي، وظل الوضع هكذا لفترة ليست طويلة. ولكن منذ عامين فقط شعر أنه فعلاً استنفد كل طاقته، ولم يعد يستطيع أن يعمل أكثر من ذلك، فاستسلم لفكرة التقاعد و من يومها وهو على هذا الحال....وحيدا. لذلك نجده اليوم سعيدا ومتحمسا، هو الذي فقد الأمل في الحياة تماماً، فهو لا يعرف ماذا يفعل غير أن يعمل، هذا

هـو الشـئ الوحيـد الـذي يجيـده حقـاً، فطـوال هذيـن العامـين وهـو يشـعر بفـراغ نفـسي شـديد، ويعيـش عـلى أمـل أن يتذكـره الرحمـن في أيـة لحظـة، لكـن اليـوم مختلـف فلديـه مهمـة يقـوم بهـا ويـا الله فهـو يشـتاق إلى هـذه الكلمـة «مهمـة»..

***

دخـل إلى دورة الميـاة وقـرّر قـرارا ثوريـا لم يجـسر عـلى اتخـاذه منـذ فـترة، ألا وهـو حلاقـة ذقنـه الطويلـة، ولكـن لديـه مشـكلة فهـو لا يتذكـر مـكان الأمـواس، وهـل لديـه واحـد أم لا مـن الأسـاس، يـا لهـا مـن ورطـة فهـو لا يريـد أن يتأخرعـلى «المهمـة» كـما أطلـق عليهـا، لقـد سـحرته هـذه الكلمـة وقـرر اسـتخدامها مـن الآن فصاعـدا حتـى تنتهـى هـذه «المهمـة»، حمـداً لله، وجـد (موسـا) جديـدا ملقـى في أحـد الجوانـب فسـعد جـداً بغنيمتـه هـذه، وحـاول السـيطرة عليـه بيـده المهتـزة حتـى لا يجـرح ذقنـه، فوجهـه مهـم جـداً اليـوم كـما تسـتدعي المهمـة، انتهـى مـن الحلاقـة بمعجـزة، لقـد اسـتغرق أكثـر مـن نصـف سـاعة في هـذه العمليـة المتعـسرة، نظـر إلى سـاعة الحائـط بعـد أن خـرج مـن المرحـاض فوجـد أن الوقـت يداهمـه، فالمتبقـي هو سـاعة ونصـف، وبالـكاد يكفـي، سيسـتهلك الطريـق حـوالي سـاعة فلـم يبـق لـه سـوى نصـف سـاعة فقـط للاسـتعداد،

فتح الدولاب سريعاً واختار بذلته المفضلة التي تجعله أنيقاً حتى ينال إعجاب «الميكاب أرتيست».

انتهى من الاستعداد ونظر في المرآة نظرة أخيرة ليرى النتيجة النهائية، شعر بالرضا عن نفسه وترجّل إلى الشارع وقلبه يدق مثل طفل في طريقه إلى الملاهي للمرة الأولى في حياته، وصل إلى العنوان المقصود فوجدها بناية عادية جداً في حي «مصر الجديدة» عكس ما توقع، كان يظن أنه سيجد استوديو أو محلا أو أي شيء من هذا القبيل، ولكن في المقابل وجد هذه البناية السكنية العادية، لحسن الحظ وجد حارسا للعقار يجلس أمام الباب فسأله إذا كان «الميكاب أرتيست أحمد مكاوي» يسكن هنا، فأشار له الرجل على الدور الرابع، وقال إنه سيجد مقصده في الشقة التي تقع على الجانب الأيمن، شكر الرجل واتبع إرشاداته حتى وصل للشقة المذكورة ورن الجرس ففتحت له فتاة حسناء في منتصف العشرينيات ترتدي بذلة سوداء تحتها قميص باللون الوردي، توقع أن تكون هي من كانت تحادثه في الهاتف، نظرت له مبتسمة وطلبت منه أن يدخل فبادلها ابتسامة متوترة وأذعن لطلبها ولكن عندما دخل الشقة أصابته صدمة شديدة وخيبة أمل.

المكتب

أول مـا وقعـت عليـه عينـاه بعـد أن دخـل الشـقة هـو صـف طويـل مـن الكـراسي المتراصـة عـلى جانبـي الردهـة الطويلـة، يجلـس عليهـا العديـد مـن الرجـال المسـنين البؤسـاء مثلـه، فهـو لم يتوقـع أن يكـون عـدد المتقدمـين كبـيراً هكـذا، غـير أن السـكرتيرة أكـدت لـه أنهـا مقابلـة شـخصية، ثـم منـذ متـى والمقابـلات الشـخصية تتـم بهـذا الشـكل؟!

انتابـه شـعور أنـه دخـل عـزاء وليـس مقابلـة شـخصية لكثـرة هـذه الوجـوه المسـنة البائسـة. عـلى حـد علمـه فالمقابـلات الشـخصية تكـون لـكل شـخص عـلى حـدة ويتـم تحديـد موعـد منفصـل لـكل شـخص، فهـو لم يـر في حياتـه مثـل هـذا الجمـع الغفـير مـن أجـل مقابلـة شـخصية واحـدة. فقـام بالاستفسـار مـن السـكرتيرة عـن كنـه هـذه المقابلـة الشـخصية الغريبـة فأكـدت لـه أن كل شـخص سـوف يدخـل عـلى حـدةٍ وأن اعتقـاده بـأن المقابلـة جماعيـة غـير صحيـح، فهـدأ قليـلاً

ولكن الشعور بالإحباط لم يهدأ بكلمات السكرتيرة التي قالت له أيضاً إنه سيتم اختيار شخص واحد «للمهمة» وطبعاً مع وجود هذا العدد الكبير احتمالية اختياره ضعيفة، هو الذي وضع الكثير من الآمال على هذه «المهمة» الصغيرة، يمكن أن تدوم هذه «المهمة» لبضع ساعات فقط، ولكنها أفضل من لا شئ على الإطلاق؛ ولذلك فهو لا يريد أن يخسرها. الآن هو يفهم سبب نظرة البؤس على وجوه الآخرين، فهم مثله تماماً يضعون آمالاً كبيرة على هذه «المهمة». أخبرته السكرتيرة أن ينتظر قليلاً حتى يتم استدعاءه للدخول وهو ما يفعله الآن.

بعد برهة من الزمن دخل عليهم شاب في أوائل الثلاثينات من باب أمامهم، يبدو أنه باب مكتبه، حليق الشعر والذقن، يرتدي قميصاً مقلماً باللونين الأزرق والأبيض و عليه بنطلون باللون البني الفاتح وحزام باللون البني الداكن وجذاء بنفس لون الحزام، متوسط الطول رفيع الجسد، عيناه جاحظتان قليلاً، لن تلاحظ هذا الجحوظ البسيط إلا إذا دققت النظر إليه، فمه رفيع وجبهته لامعة يبدو عليه التوتر أو العجلة كأنه ترك شيئا مهما يفعله ويريد العودة إليه سريعاً.

قدمته السكرتيرة على أنه «أحمد مكاوي» الميكاب أرتيست المنتظر. فاندهش «ماضي» أن هذا الماثل أمامه هو الميكاب أرتيست المزعوم، فهيئته تدل على أنه موظف حسابات في شركة مقاولات لا أكثر، ثم منذ متى والميكاب أرتيستس يبدون هكذا ؟!!

حاول «ماضي» ابتلاع دهشته وابتسم ابتسامة صفراء للميكاب أرتيست الذي نظر لهم نظرة سريعة ثم ألقى عليهم التحية، وبعدها ذهب ليتحدث للسكرتيرة بصوت غير مسموع بجانب أذنها فهزت رأسها متفهمة، فأشار لها أن كل شئ على ما يرام، ثم دخل مسرعاً مرة أخرى إلى مكتبه.

بعد وقت أقصر هذه المرة اعتذرت السكرتيرة من بعض الحاضرين وقالت لهم إن أستاذ «أحمد» لن يتمكن من مقابلتهم اليوم نظراً للعدد الكبير الموجود، فانصاعوا إلى طلبها على غير رغبتهم وذهبوا إلى حال سبيلهم. هذه المرة قامت مباشرة بعد انصراف المستبعدين بتوزيع ورقة وقلم على باقي الحضور وطلبت منهم الإجابة على الأسئلة المذكورة في الورقة وإعطاءها إياها بعد الانتهاء منها مباشرة. أخذ منها الورقة بيد مرتجفة كالعادة وبدأ في قراءة الأسئلة المدونة بها.

استمارة المتطوعيين

برجاء الإجابة على كافة الأسئلة التالية بخط واضح

السؤال الأول: كم عمرك؟

السؤال الثاني: لماذا أقدمت على هذه التجربة؟

السؤال الثالث: هل أنت راض عن حياتك؟

السؤال الرابع: أذكر أربعة أشياء تشعر بالندم لأنك قمت بفعلها أو لتخاذلك عن فعلها

السؤال الخامس: هل تقوم باستخدام أي مستحضر من مستحضرات التجميل الخاصة بالرجال؟ (سواء كانت مستحضرات تجميلية أو للعناية بالبشرة)

السؤال السادس: هل لديك أولاد؟

السؤال السابع: ما هو رأيك في استخدام الرجال لمستحضرات التجميل لتحسين مظهرهم الخارجي؟

السؤال الثامن: إذا طُلب منك التفرغ لمدة أسبوع من الآن هل تستطيع ذلك ؟ وإن لم تستطع أذكر الأسباب.

انتهت الأسئلة وبالتوفيق للجميع

اندهش «ماضي» من هذه الأسئلة التي لا علاقة لها بمستحضرات التجميل، ولكنه تغاضى عن اندهاشه وشرع في الإجابة دون اعتراض ظناً منه أنهم بالتأكيد يفهمون ما يفعلون ويمكن أن تكون هناك صلة خفية لا يعلم عنها شيئا، فهو على كل حال ليس خبيرا في هذا المجال، ولكن ما يثير غيظه حقاً ولا يستطيع التغاضي عنه هي الجملة الأخيرة «بالتوفيق للجميع»، توفيق في ماذا بالضبط؟! هذه مجرد تجربة تافهة وليس امتحانا للثانوية العامة، هو لا يريد أن ينعت «المهمة» بصفة التفاهة، ولكن هذه هي الحقيقة بالرغم من كل شئ. فالموضوع بسيط تجربة فاعلية بعض مستحضرات التجميل وينتهي الأمر لم كل هذا التعقيد ؟!

***

بعد أقل من ربع ساعة أنهى أول الحاضرين الإجابة على الأسئلة وفي هذه الأثناء كان «ماضي» لا يزال يفكر، وحتى بعد انتهاء جميع الحاضرين الذين لا يزيد عددهم الآن عن عشرة أشخاص، وحتى بعد أن بدأت المقابلات كان هو لا يزال يفكر ويكتب. بعد أن انتهى أخيراً أعطى الورقة للسكرتيرة فكان هو آخر من تم إجراء المقابلة معه.

استمارة المتطوعين

برجاء الإجابة على كافة الأسئلة التالية بخط واضح

السؤال الأول: كم عمرك؟

تقريباً ٧٣ أو أقل قليلاً لم أعد أحسب

السؤال الثاني: لماذا أقدمت على هذه التجربة؟

الملل

السؤال الثالث: هل أنت راض عن حياتك؟

لا يمكننى قول هذا

السؤال الرابع: أذكر أربعة أشياء تشعر بالندم لأنك قمت بفعلها أو لتخاذلك عن فعلها

يوجد الكثير ولكن أهم أربعة أشياء هم :

عدم حضور جنازة والدى - إنشغالى المبالغ فيه بالعمل - عدم البوح بمشاعرى لحب عمرى - خسارة صديق عمرى

السؤال الخامس: هل تقوم باستخدام أي مستحضر من مستحضرات التجميل الخاصة بالرجال؟ (سواء كانت مستحضرات تجميلية أو للعناية بالبشرة)

لا

السؤال السادس: هل لديك أولاد؟

لا

السؤال السابع: ما هو رأيك في استخدام الرجال لمستحضرات التجميل لتحسين مظهرهم الخارجي؟

لا أعلم حسب كيفية الأستخدام إذا كانت للعناية بالبشرة وما شابه فلا مشكلة

السؤال الثامن: إذا طلب منك التفرغ لمدة أسبوع من الآن هل تستطيع ذلك ؟ وإن لم تستطع أذكر الأسباب.

لا مشكلة لدى الكثير من الوقت

انتهت الأسئلة وبالتوفيق للجميع

طلبت منه السكرتيرة التوجه إلى مكتب «أحمد مكاوي» الذي يعرف مكانه جيدا الآن، دخل المكتب فوجده مكتبا عمليا للغاية يتميز بالبساطة ولكنه أنيق في الوقت نفسه، خلف المكتب الذي يجلس عليه «أحمد» مرآة كبيرة بعرض الحائط، وعلى الحائط الآخر بعض اللوحات الفنية المعلقة التي تمتاز باللونين الأزرق والأبيض فتعطي إحساساً بالراحة، أما المكتب نفسه فكان لونه بنياً داكناً بسيط التصميم، لا يوجد عليه الكثير من الأشياء، مجرد حاسوب في الركن الأيمن وكوب من القهوة على الجانب الأيسر أمامه لافتة صغيرة مكتوب عليها اسم «أحمد مكاوي» بحروف ذهبية.

انتبه «أحمد» لدخول «ماضي» فقام من مكانه ليرحب به.أعُجب «ماضي» بالطريقة الودود التي يعامله بها «أحمد» فخف توتره وهدأ قليلاً.تأمل «أحمد» هيئة «ماضي» سريعاً فوجد أمامه رجلا مسنا ترك العديد من السنوات وراء ظهره، ينتشر الشعر الأبيض على جانبي رأسه في إهمال مثل نُدف الثلج اللامعة، ولكن يندثر في استحياء عن مقدمة رأسه البارزة بعض الشئ، يرتدي عوينات دون إطار خارجي فتظهر الخطوط العميقة تحت عينيه جلية للعيان،

متوسط الطول يميل إلى القصر قمحي البشرة لا يوجد شئ محدد يميزه، لن يُحفر شكله في ذهنك بسهولة إن قابلته مرة واحدة، لولا أنفه الكبير بعض الشئ الذي لا يتناسب قليلاً مع الفم الصغير الذي يليه. تبدو عليه الجدية حتى إن لم يقصد هو ذلك، فمن المؤكد أنه اكتسب هذه النظرة الجادة من طبيعة عمله التى كانت تفرض عليه هذا طيلة الوقت، لكنه اعتادها فلم يستطع التخلص منها منذ ذلك الحين.

دارت كل هذه الأفكار في ذهن «أحمد» لثوان معدودة قبل أن يبدأ بالكلام قائلاً :

- أولاً أحب أن أشكرك على اهتمامك بالمشاركة في هذه التجربة، قد قرأت إجابتك التي وردت في الاستمارة وأود أن أستفسر عن إجابة السؤال الثامن، أولا: هل أنت مستعد للقدوم إلى هنا يومياً لمدة أسبوع ابتداءً من غدٍ بما في ذلك الجمعة والسبت وهما عطلة رسمية؟

أجابه ماضي بدون تردد :

- بالتأكيد فليس لدي شئ آخر أهم أقوم به

قال أحمد :

-حسناً، جيد جداً

ثم أردف قائلاً:

- في الأيام القادمة نريد منك توضيح إجاباتك بصورة تفصيلية، خصوصا إجابتك عن السؤال الرابع حتى نتعرف أكثر على شخصيتك، هل لديك أي مانع لفعل ذلك؟

صمت ماضي قليلاً قبل أن يجب ثم قال:

- آآآاه..ليس لدي مانع ولكن ما علاقة هذا بمستحضرات التجميل ؟

أجابه أحمد :

- هذه المستحضرات طفرة في عالم التجميل ونريد أن نضع لك مكياجاً يعبرعن شخصيتك أنت، يعبر عن مشاعرك أنت فقط.

قاطعه ماضي قائلاً:

- عذراً ولكنني مازلت لا أفهم شيئاً، لماذا يعبر عني أنا وما الذي سوف يدفع الناس لشراء منتج يعبر عني؟

ضحك أحمد وقال :

- لم تفهم قصدي يا سيد «ماضي» ما أريد قوله أن هذا المنتج سوف يعبر عن الشخص الذي يضعه أياً كان من هو، ولأننا في مرحلة التجربة فمازلنا بحاجة إلى معلومات إضافية عن المتطوعين حتى نستطيع التطوير من المنتج قبل أن نطرحه في الأسواق.

قال ماضي وهو يهز رأسه:

- نعم فهمت، على أي حال لا يوجد مشكلة، لدي فقط أخبرني في أي ساعة ستكون المقابلة القادمة.

أجاب أحمد بنبرة آلية بعض الشئ كشخص اعتاد على قول ذات الجملة مراراً وتكراراً:

- لم يتم اتفاق نهائي على المتطوع المختار، وعلى كل حال انتظر مكالمة مساء اليوم من الآنسة «عفاف» سوف تخبرك بالموعد القادم بإذن الله إذا تم وقوع الاختيار عليك، شرفت بمعرفتك يا سيد «ماضي».

قال جملته الأخيرة وهو يبتسم ويمد يده لماضي ليصافحه، بادله «ماضي» السلام وشكره هو الآخر ثم انصرف.

***

في طريق العودة استرجع «ماضي» المقابلة مع «أحمد مكاوي» ولم يستطع تفسير جملته الأخيرة التي قالها بنبرة محايدة طالما استخدمها «ماضي» نفسه في المقابلات الشخصية التي أجراها على مدار الأعوام السابقة أثناء عمله، وهي نبرة لا تدل على أي شئ فكل الاحتمالات واردة. ضحك من نفسه على اهتمامه الشديد بتجربة مستحضرات تجميل وهو الذي لم يهتم بهذه الأشياء قط في حياته، ولكن عندما سأله عن إذا كان يمانع أن يحكي أكثر عن الأفعال التي ندم عليها، شئ ما تحرك بداخله، شئ لا يستطيع أن يصفه بالضبط ولكنه إحساس أقرب إلى الارتياح ولكنه أكبر وأعمق من ذلك، فهو بالفعل يريد أن يحكي لشخص ما، فهو بلا صديق منذ زمن طويل، ودائماً ما كان يعتبر نفسه كتوماً لا يتحدث عن مشاعره كثيراً، أغلب كلامه كان في نطاق عمله أو عن البورصة والأحوال الاقتصادية فلم يكن لديه الوقت الكافي للتواصل مع ذاته وفهم احتياجاتها. لذلك يشعر بحائط سد بينه وبين مشاعره نفسها لا يفهمها جيداً، هو الآن طفل حائر يحاول اكتشاف مكنونات نفسه من جديد. يريد أن يحكي، أن يتكلم. يريد أن يبوح بما يدور بخلده دون تفكير أو تحضير وأهم من كل ذلك يريد أن يجد شخصاً يسمعه ويهتم بما يقول. وصل

«ماضي» إلى منزله ولكن روحه في مكان آخر. منذ أن طلب منه «أحمد» أن يحكي ماضيه والذكريات تطارده والصور تقفز أمام عينيه. رأى مشاهد قد ظن أنه لم يعد يتذكرها ولكنه اكتشف أنه كان مخطئاً. بعض الأحداث لم يصدق أنه مضى على حدوثها أكثر من ثلاثين عاماً فهي في ذهنه طازجة وواضحة كأنها حدثت بالأمس.

استيقظ طوال الليل بجانب الهاتف، يسلي نفسه بمشاهدة التلفاز ثم ينظر للهاتف بين الحين والآخر عسى أن يكون هناك مكالمة فائتة لم ينتبه لها مثل أي طالب محترم ينتظر نتيجة التنسيق. مر الوقت ولم يتصل به أحد، تُرى هل تم استبعاده، لابد أن «أحمد» كان يحاول فقط أن يكون لطيفاً ولم يرِد إحراجه فطلب منه انتظار المكالمة التي يعلم أنها لن تحدث. كم كان مغفلاً فقد ظن أن طريقة «أحمد» الودود كانت بسبب قبوله المبدئي لماضي ولكن يبدو أنه كان يتبع قواعد الذوق لا أكثر. قام «ماضي» من مكانه وظل يمشي في غرفة المعيشة ذهاباً وإياباً دون أن يشعر.. لقد شعر بالغضب والإحباط فبعد أن وجد الأمل يذهب منه هكذا سريعاً. لقد كانت «المهمة» قريبة جداً وكان يضع عليها الكثير من الآمال، فقد حضر الكلام الذي سيقوله

غداً وتدرب عليه في عقله مراراً وتكراراً، لقد أمضى اليوم كله يفكر ويفكر ومع كل فكرة يزيد الأمل بداخله حتى أصبح كبيراً جداً لا يستطيع أن يخمده الآن، حتى أنه شطح بخياله وفكر أن يتخذ «أحمد» صديقاً بعد انتهاء «المهمة»، ولكن بالرغم من كل هذه الأفكار السلبية ظل متمسكاً بالأمل الضعيف حتى غلبه النوم من فرط الإجهاد الذهني فنام في مكانه. سمع صوت هاتف يرن في أحلامه فانقلب على الجهة الأخرى وهو مازال مستغرقا في نومه، أجفل فجأة وبدأ يميز بين الحقيقة والخيال، فوجد أن هاتفه يرن بالفعل برقم لا يعرفه ولكنه أدرك أيضاً أن الساعة الرابعة صباحاً، لم يتوقع أن يكون المتصل ذا علاقة بالمهمة بل الأقرب للمنطق أن هناك مصيبة ما لدى أحدهم. فأسرع بالرد بيده المرتجفة كالعادة :

- لعله خير.

تمتم في سره فجاءه صوت «أحمد مكاوي» على الجهة الأخرى يقول له:

- صباح الخير يا أستاذ «ماضي»، متأسف على التأخير، وآسف أيضاً على الاتصال في هذا الوقت الباكر.

أعاد صوت «أحمد» الأمل لماضي وأثلج صدره ولكنه حاول الحفاظ على وقاره، فأوضح له أنه لا بأس في ذلك ولا داعي للأسف فأكمل «أحمد» كلامه قائلاً:

- حسناً جداً، لقد وقع الاختيار عليك يا سيد «ماضي» فهل تستطيع المجئ غداً في نفس المكان في حدود الساعة الحادية عشرة صباحاً لنبدأ.

أجابه «ماضي» مرة أخرى أنه لا بأس في ذلك ثم أنهى المكالمة. ولكن ألم يقل إن السكرتيرة هي من سوف يتصل به، ثم منذ متى يتم الاتفاق على مقابلات تخص العمل في الساعة الرابعة صباحاً !!

على حد علمه كان يجب أن تتصل السكرتيرة لتحدد معه موعداً ولا يتصل أبداً صاحب العمل شخصياً مهما كانت الظروف، وكان ذلك يحدث في حدود الساعة الثامنة صباحاً إلى الساعة الثانية عشرة ظهراً فقط ليس قبل ذلك أو بعده.

***

قرر «ماضي» أن يأخذ قسطاً من الراحة حتى يكون على أتم الاستعداد لمهمة الغد، فاتجه إلى غرفة نومه وغط في نوم عميق سريعاً، فهذه الأحداث تعتبر كثيرة جداً

وشاقة على شخص يعيش حياة مثل حياته.

استيقظ قبل الموعد بثلاث ساعات، وطلب اليوم من خادمه أن يعد له إفطاراً ملكياً على غير عادته، فهو في الأيام العادية يأكل أي شئ ولا يسأل كثيراً ولكنه اليوم أملى على الخادم قائمة بوجبة إفطاره المفضلة من الزبد والمربى بجانب (التوست) الأبيض المحمص والجبن والقهوة الفرنسية. فمنذ أن تذوق هذه الوجبة بالعاصمة الفرنسية للمرة الأولى وهي إفطاره المفضل..تذكره بسحر باريس أو بمعنى أصح سحر مطعم الفندق الباريسي الذي كان يتناول إفطاره به كل يوم على أنغام الموسيقى الباريسية الحالمة. أكل بشهية مفتوحة وهو مستمتع بهذه اللحظة ويفكر بباريس، ترى هل هي جميلة مثل ألحان موسيقاها؟ تحدث إليه الناس كثيراً عنها وذهب هو نفسه إليها عدة مرات، ولكن لم يكن لديه الوقت الكافي كي يعرفها حق المعرفة.

شرع في قراءة الجريدة مثلما يفعل كل يوم وهو يفكر، فانتهى منها سريعاً حتى يستعد لموعده فلم يبق على الموعد غير ساعتين.ذهب مرة أخرى ليزيل الشعيرات الصغيرة التي نمت على وجهه ثم اتجه إلى غرفة نومه الواسعة بيضاء الحوائط والتي تزدان باللوحات الطبيعية التى تحتوي على صور أنهار وأشجار وفي الحائط المقابل

للسرير لوحة جميلة لثلاثة أحصنة تعدو بسرعة حتى أنك تكاد تراها تخرج من الصورة وتتميز كافة اللوحات بإطار ذهبي موحد يضفي أناقة ملحوظة عليها ويزيد من قيمتها. والغرفة أيضاً ملحقة بغرفة ملابس صغيرة بها الكثير من الأرفف على الجانبين ودولاب بعرض الحائط في مواجهة الباب علق عليه عدد من البذلات المختلفة بنظام وترتيب، دخلها «ماضي» ليختار ملابسه، لقد قرر اليوم ارتداء ملابس أقل تحفظاً فقام باختيار قميص أبيض اللون وبنطال زيتي فهذا (الطقم) دائماً ما يجعله أنيقاً. عندما وصل للشقة المقصودة التي كان بها منذ أقل من أربع وعشرين ساعة، رن الجرس ففتحت له السكرتيرة مرة أخرى وطلبت منه الدخول والانتظار قليلاً، وهذا ما قام به بالفعل. بعد فترة قصيرة خرج له «أحمد مكاوي» بنفسه وابتسامة ودود تعلو وجهه ثم قال له:

- أهلاً بك يا سيد «ماضي» يسعدني حقاً رؤيتك من جديد.

رد عليه «ماضي» بابتسامة فأردف أحمد قائلاً:

- تفضل إلى المكتب يا سيد «ماضي» أتمنى أن تكون مستعدا.

دخل ماضي وأكد له أنه على أتم الاستعداد، وبعد أن جلس «أحمد» على كرسيه بدأ بالكلام:

- كما هو مذكور في الاستمارة أنت تجاوزت السبعين عاماً بأعوام قليلة وأنك أيضاً غير راض عن حياتك، هل لهذا الشعور أي علاقة بإجابتك على السؤال الرابع؟

قال «ماضي» بأسى:

- نعم...

فقال «أحمد» :

- حسناً يا سيد «ماضي» أول الأشياء التي ندمت عليها هي عدم حضور جنازة والدك هل تمانع أن تحكي لي التفاصيل؟

أوضح ماضي مرة أخرى أن ليس لديه أي مانع ثم سرح قليلاً وبدأ يحكي..

«وجهـــة النظر فكرة مطاطة تعبر عن الشـــئ ونقيضه، تكون معك اليوم وفي لحظة أخرى تكون ضدك. فإذا أردت أن ترى الحياة من زاوية معينة فســـتجد ملايين الأسباب الـــتي تؤيد موقفـــك، وإذا أردت أن تراها من زاوية أخرى مختلفة تماما فستجد ملايين المبررات أيضا لفعل ذلك؛ فجميعها في النهاية وجهات نظر، ولكن الإنســـان بطبعه محب للاســـتقرار، لذلك تجده يصنع من وجهات النظر حقائق ويُسلم بها»

الندم الأول

جنازة والدي

تخرجت من كلية الهندسة بجامعة القاهرة بدرجة جيد جداً في عمر الحادي والعشرين عاماً أي في أواخر الستينيات، كان العمل الحكومي له مكانة عالية في ذلك الوقت وكان الموظف الحكومي لا يزال يحظى بالاحترام والتقدير. في زمن الاشتراكية وخطابات «عبد الناصر» المليئة بالحماسة، برغم كل المصاعب التي مرت بها البلاد في ذلك الوقت ولكن الشباب كان مفعماً بحيوية فلسفة «ماركس» اللاسلطوية التي تثمل الأذهان، لديه الكثير من الآمال والطموحات لمستقبل أفضل بدون طبقات الرأسمالية المستغلة، وكنت أنا أحد هؤلاء الشباب، كنت أحاول الاجتهاد في عملي قدر ما أستطيع كي أحقق طموحي وأحلامي. إيماني بالفرص المتكافئة، كان يزيد من حماستي في

العمل، استمر عملي كموظف حكومي عامين، كنت أريد الالتحاق بمنحة دراسية للحصول على درجة الماجستير من الخارج، لم يكن الأمر صعباً في هذا الوقت خصوصاً مع تقدير عالٍ مثل تقديري، ولذلك حصلت على منحة دراسية للحصول على درجة الماجستير في إحدى الجامعات الأمريكية. وجودي في أمريكا لم يغير الكثير من معتقداتي، كثير من الناس يتعجبون من هذا الشخص الذي يتعرض للكثير من الثقافات المختلفة ومع ذلك يظل كما هو ضيق الأفق .كنت أنا هذا الشخص كان يوجد معي العديد من الجنسيات ولكنني لم أرِد التعامل معهم فأي مختلف سيء كما تعلم، حاول أحد زملائي الهنود التقرب مني، كان شخصية ودود، ولكن بعد أن عرفت أنه هندوسي يعبد الأبقار نفرت منه واستغفرت الله، مع أني إذا كنت أعطيت نفسي الفرصة وكان لدي ما يكفي من سعة الصدر، كنت عرفت الحقيقة أنه يقدس البقر ولا يعبده، ولكنني كنت أثق في معتقداتي إلى أقصى حد، حتى لو كانت خاطئة أو غير منطقية، لذلك تجدني لم أوطد علاقتي إلا مع ثلاثة من زملائي لم يكن بهم أي ميزة غير أنهم من نفس بلدي وثقافتي.الشخص الوحيد الذي أثر فيّ هو الدكتور الأمريكي الذي كان يشرف على رسالتي، فهو شخص عملي، وتقربي

منه زادني عملية فوق عمليتي، فأنا بطبعي شخص عملي وطموح، ولكن معاشرة هذا الدكتور ساعدت على زيادة هذه الصفات وسيطرتها على شخصيتي، فنحيت المشاعر جانباً أكثر مما سبق، ولكن تأثري به لم يكن له علاقة بتقبلي للأفكار الجديدة، ولكن لاستعدادي الشخصي للتأثر بهذه الأفكار التي يعتنقها هو شخصياً، فأنا كنت مستعداً لاكتساب هذه الصفات وعندما أتيحت لي الفرصة ووجدت شخصا يحثني عليها نضجت وترعرعت بداخلي، وهذا ما يحدث لنا جميعاً، في الغالب أنت تشاهد المذيع الذي يقول كلاما على هواك، تقرأ الجريدة التي تؤيد أفكارك حتى بعد اختراع ما يسمى «الفيسبوك» فلا يعجبك المنشور في الغالب إلا إذا كان على خط معتقداتك؛ ولذلك كان من الطبيعي أن أتغير وأصبح شخصية عملية متبلدة المشاعر، وقد تجلى هذا التغيير في أول إجازة لي بمصر عندما اكتشفت تدهور حالة والدي الصحية، حزنت حزناً شديد لذلك، وذهبت معه لكثير من الأطباء وكان من الواضح أن حالته صعبة جداً، ورأيت قلة الحيلة تطل من عين أمي بين الحين والآخر، وكأنها ترجوني أن أعود لأمكث معهم وأزيل بعض الحمل عنها، كانت تقول كل هذا دون أن تنطق بكلمه واحدة، فقط نظرات، وكنت أفهمها وأقدر

مشـاعرها فهـي وحيـدة، وكانـت دائمـة الاعتـماد عـلى أبي في كل شـئ، لكـن الآن هـو يعتمـد عليهـا كليـاً، ومطلـوب منهـا تحمـل مسـئوليته ومسـئولية البيـت والنفقـات، وأختـي صغـيرة لا تسـتطيع فعـل شـئ هـي الأخـرى، بـل كانـت عبئـاً آخـر مـن ضمـن أعبـاء أمـي، كنـت أدرك كل هـذا ولكـن حاولـت تجاهلـه.

***

جـاء موعـد السـفر وبدايـة العـام الـدراسي الجديـد متوازيـاً مـع تتدهـور حالـة والـدي الصحيـة أكثـر، كان مـن الواضـح أن الأمـل ضعيـف في شـفائه وكان عـليّ أن أختـار، إمـا المكـوث بجانبـه في أيامـه الأخـيرة، وإمـا مسـتقبلي الـدراسي والمهنـي. أعتقـد أنـك تعـرف اختيـاري فـلا داعـي للتوضيـح أكثـر، لكـن قبـل سـفري أعطيـت أمـي القليـل مـن الأمـوال حتـى يسـتريح ضميـري، وقلـت لهـا ألا تـتردد في طلـب المزيـد مـن النقـود إن احتاجـت لذلـك، قلـت هـذا الـكلام بغـير حماسـة وشـعرت هـي بذلـك، ولكننـي حاولـت تجاهـل الأمـر مـرة أخـرى. فكـرت أن هـذا مسـتقبلي مـاذا تريـد منـي؟! بـل إننـي بـدأت أشـعر بالضغـط مـن نظراتهـا اللائمـة، وأنهـم عائـق في طريـق أحلامـي فشـعرت بالضيـق.لم يمـت والـدي كـما كنـت

أتوقع، ولكنه عاش يعاني لأكثر من تسع سنوات وخلال هذه السنوات التسع كنت قد عدت من أمريكا بعد أن قضيت بها ثلاث سنوات، عدت بعد حصولي على درجة الماجستير في الهندسة الميكانيكية، عملت في أحد المصانع بالقاهرة الكبرى وبعد عام واحد فقط من العمل هناك تمت ترقيتي وأصبحت نائباً لمدير قسم الهندسة الميكانيكية، وبعد عامين آخرين أصبحت مديراً للقسم ذاته.

***

استمر هذا الوضع ثلاث سنوات حتى عُرض عليّ إعارة إلى إحدى الدول العربية، وكما قلت لك سابقاً السفر إلى أمريكا غير الكثير من شخصيتي، وسلط الضوء على بعض الصفات وطمس آثار صفات أخرى من الصفات الحميدة التي اكتسبتها، أو ازدهرت في شخصي الإتقان والاجتهاد في العمل إلى جانب الدقة الشديدة وذلك ساعدني كثيراً في عملي وحياتي، ولكن من ناحية أخرى أصبحتُ عملياً أكثر كما أوضحت سابقاً ومادياً جداً، المال له الكلمة الأولى في حياتي ولأنني كنت من أسرة متوسطة تعاني نوعاً ما مادياً، فكان لدي هدف نُصب عيني هو أن أصبح غنياً ميسور الحال، كنت

أحتاج الكثير من الأشياء في طفولتي من لعب وملابس وما إلى ذلك، عندما تزيد طلباتي كان أبي يقول لي :

- عندما تنضج وتعمل اشترِ ما ترغب فأنا لا أملك كنزاً لتلبيه طلبات سعادتك.

كنت أحزن كثيراً لذلك، وأشعر بالعجز، ثم أرتدي ملابسي القديمة في يأس وأنا أشعر بالقهر، أعلم الآن أن أبي كان يفعل ما بوسعه، ولكنني كنت طفلاً، لدي احتياجات وحسب، لا أرى الأمور مثلما يراها هو، وكانت طريقة أبي قاسية معي كثيراً فكنت أشعر بالظلم وأنه يعاقبني على جُرم لم أرتكبه فأبكي بحرقة فكان ينهرني ويقول لي :

-الرجال لا يبكون، إن كنت رجلاً فتصرف مثل الرجال ولا تبكِ مثل الفتيات، ماذا تركت لأختك الصغيرة ؟

كنت أشعر بالإحراج وأخاف على رجولتي فأكبت مشاعري، ومع الوقت تعلمت ألا أتأثر نهائياً وأفكر بعملية في حل لمشاكلي المادية، ومنذ ذلك الحين قررت أن أصبح غنياً جداً حتى يكون معي الأموال لشراء كل ما حرمني منه والدي سابقاً، وهذا ما حدث ولكن مع تغيير بسيط، لقد سحرتني الأموال والمناصب، فكنت (استخسر) أن أصرف ما جمعت من أموال، وأطمع في غيرها، دخلت

في حلقة مفرغة لم أستطع الخروج منها، ولذلك كان من المنطقي قبولي لهذه الإعارة من دون أي تردد، بالرغم من التدهور الزائد في حالة والدي الصحية، كان بالفعل دون مبالغة يعيش أيامه الأخيرة بالمعنى الحرفي، ولكن لم تُفاجأ أمي هذه المرة لاتخاذي قرار السفر مجدداً، فمنذ رجوعي من أمريكا وكل دوري في حياة عائلتي هو إعطاؤهم ما يحتاجون إليه من أموال لا أكثر، كما يقولون وجودي مثل عدمه بالنسبة لهم، سافرت بالفعل وكنت أرسل لهم الأموال باستمرار، فقد أصبح لدي الآن الكثير منها، وكان المال الذي أرسله لهم مجرد فتات لا أكثر. بعد أقل من سنة -كما لك أن تتوقع الآن- وصلتني عبر التلغراف رسالة بموت والدي ويوم الجنازة. كنت في هذه الأثناء مسؤولاً عن تدريب طقم كامل من عمال مصنع جديد ومهندسيه، ولذلك كان يوجد على عاتقي الكثير من الالتزامات أمام أصحاب المصنع وشركائهم الأجانب، فطلب إجازة في هذا الوقت سيضعني في موقف محرج جداً، كنا ملتزمين بجدول زمني محدد مع الشركاء الأجانب فلا يوجد وقت فعلاً لأي ظروف طارئة، ثم إن والدي قد مات بالفعل فما جدوى وجودي الآن بجانبه، هذا ما قلته لنفسي «إن الأمر لم يكن بيدي» أو هذا ما كنت أريد تصديقه، بادرت

بإرسال تلغراف أعزي به أسرتي وأواسي فيه أمي وأختي كأي شخص غريب.

قاطعه «أحمد» قائلاً :

- آسف على مقاطعتك يا سيد «ماضي»، ولكن ما علاقة سفرك إلى أمريكا بموت والدك ؟ أم هو مجرد شعور بالندم لتركه والسفر؟ فكما تقول إنه مات خلال سفرك الثاني ليس الأول.

رد «ماضي» في حزن :

- بل سفري له علاقة قوية بموته، كنت أنظر للموقف بأفق ضيق جداً وأنانيتي وحبي لذاتي كانت مثل الغشاوة على عيني، كان بإمكاني فعل الكثير والكثير في ذاك الوقت، فأنا كنت أعمل في أمريكا أثناء دراستي فكنت أجني بعض المال الإضافي وأموال المنحة كانت تساعدني من الجهة الأخرى، لذلك كان بإمكاني إحضار والدي للعلاج، كان بإمكاني إنقاذه من الموت...

قاطعه «أحمد» مرة أخرى :

- الأعمار بيد الله يا سيد ماضي هذا عمره قبل كل شئ.

أردف ماضي قائلاً :

- ونعم بالله، أعلم ذلك ولكن هو عاش تسع سنوات من المعاناة كان يمكن أن يعالج علاجاً جيداً ويعيش هذه الأعوام بصحته بدلاً من الآمال الزائفة في الشفاء بين الحين و الآخر والانتكاسات المرضية التي كانت تصيبه بالإحباط، كان يمكن أن يقضي أوقاتاً سعيدة مع أسرته بدلاً من قضاء تسع سنوات بين الأطباء والمستشفيات، حتىٰ عندما مات، أنانيتي ومشاعري الجافة جعلتني أرىٰ هذه المحنة مثل المعادلة الحسابية المجردة من المشاعر، هو مات إذاً لا جدوىٰ من وجودي، لم أفكر في أمي وأختي المسكينتين، لم أدرك أنهما بحاجة لي الآن أكثر من أي وقت مضىٰ، لم يأت بخاطري الأعباء والأحمال التىٰ كانت تثقل كاهلهما، لم أشعر بالفجوة التي حدثت بيني وبينهما في حينها، هذه الفجوة التي لم تستطع الأيام أن تمحوها، لم أر أختي التىٰ كبرت قبل الأوان وأمي التىٰ مرضت ولم تعد تحتمل أكثر من ذلك، كنت مغيباً يعميني الطموح والسعي وراء الأموال.

صمت «ماضي» بعد الجملة الأخيرة، وبعد برهة من الصمت المتبادل بدأ «أحمد» بالكلام :

- لـك كل أسـفي يـا سـيد «مـاضي»، لقـد فهمـت الآن هـذه النقطـة وأشـاركك الحـزن الشـديد، وأرجـو مـن الله أن يجعـل مثـوىٰ والـدك الجنـة وأمواتنـا جميعـاً بـإذن الله.

بادره «ماضي» بقول آمين، ثم استأنف «أحمد» كلامه :

- حسـناً يـا سـيد «مـاضي» ننتقـل إلىٰ النـدم الثـاني وهـو: انشـغالك المبالـغ فيـه بالعمـل وجمـع المـال، ولقـد أوضحـت هـذا في إجابتـك الأولىٰ عـن عـدم اهتمامـك العـام بأسرتـك بسـبب انشـغالك بالعمـل والمـال، هـل يوجـد شـئ آخر تريد أن تضيفـه منعـك عنـه انشـغالك بالعمـل وجمـع المـال؟

أجابه «ماضي» :

- نعم يوجد أشياء أخرىٰ.

فطلـب منـه «أحمـد» أن يحكـي لـه التفاصيـل فانصـاع لـه وبـدأ يحكـي بالفعـل...

الندم الثاني

انشغالي بالعمل وجمع الأموال

من الطريف أن الهندسة الميكانيكية لم تكن حلم الصغر أعلم أنك قد تتفاجأ بهذا، ولكن كان حلم الطفولة أن أصبح عازفَ كمان، كانت تسحرني هذه الآلة، ما كل هذا الجمال؟! كانت ساحرة ورائعة أكثر من قدرتي على الاحتمال، الكمان هو الآلة الوحيدة من وجهة نظري القادرة على التعبير مثل الإنسان، في بعض الأحيان تشعر أنها تبكي وفي أحيان أخرى تشعر أنها تطير من السعادة، كنت أميل لسماع الموسيقى الغربية والشرقية، وكان الكمان متفوقا في الاثنين، عند سماعي لأي أغنية يكون صوت الكمان طاغياً على صوت أي مطرب مهما كان هذا المطرب بارعاً، هل لاحظت أن الكمان يستطيع التأقلم مع أي موسيقى أكثر من آلات أخرى كثيرة ؟ مثلاً الجيتار غربي

جداً و القانون شرقي جداً، لكن الكمان مختلف فهو يندمج مع كل نوع موسيقى كأنه جزء أصيل من ثقافتها، هل استمعت إلى أغنية «عبد الحليم حافظ» رسالة من تحت الماء؟ من الظلم إعطاء الفضل كاملاً لعبد الحليم و نزار قباني، فقد كان للكمان دور رئيسي في هذه الأغنية لا يمكننا إغفاله، فهي كانت روح هذه المعزوفة، هي من تنقل لك الأحاسيس واحداً تلو الآخر، تشعر بالفرح ثم الحزن أو الشجن عندما كان يقول «عبد الحليم» :

«إن كنت حبيبي ساعدني كي أرحل عنك

وإن كنت طبيبي ساعدني كي أشفى منك»

كان الكمان يواسيه ويأسف لحاله، وعندما كان يناجي حبيبته ويقول :

«يا من صورت لي الدنيا كقصيدة شعر

وزرعت جراحك في صدري وأخذت الثأر»

كان الكمان يلوم حبيبة «عبد الحليم» على ما فعلته به، وبرغم كل هذا الحب لهذه الآلة الساحرة لم أعرف يوماً أسرارها أو أتعلم لغتها. ذات يوم صارحتُ والدي بما أكنه من مشاعر لهذه الحسناء، وطلبت

منـه أن أتعلمهـا ولكـن رده كان صارمـاً وحازمـاً قـال لي :

- هل تريد أن تكون مزيكاتي تعزف خلف الراقصات!!

وطلـب منـي أن اهتـم بـدروسي وأجتهـد بهـا حتـى أتعلـم شـيئاً ذا فائـدة وطلـب منـي أيضـاً أن أنسـى هـذا الموضـوع برمتـه، شـعرت بالإحبـاط بعدهـا ولكن مـع الوقت بـدأت أرى المنطـق في كلامـه فاقتنعـت بـه وركزت عـلى دروسي ومسـتقبلي، ولكـن أنـت لا تختـار الحـب، ولكنـه هـو مـن يختـارك لذلـك ظـل حـب الكـمان كامنـاً بداخـلي لم أسـتطع التحكـم بـه أو إقصـاءه، ولكنـه كان حبـاً خجـولاً مدفونـاً في أعـماق أعماقـي لا أصرح بـه لأحـد . في بعض لحظـات الضعف عندمـا أرى عازف كـمان متمكنـاً يجيـد العـزف تتأجـج مشـاعري وأتمنـى أن أكـون مكانـه، أتمنـى أن تصـدر هـذه النسـمات الرقيقـة مـن بـين يـدي أنـا، لكـن حمـداً لله كانـت هـذه مشـاعر مؤقتـه تنتهـي بمجـرد إنتهـاء المعزوفـة، حتـى عندمـا نضجـت وأصبحـت مسـتقلاً ماديـاً ومعنويـاً لم أحقـق هـذا الحلـم، كنـت أنظـر لـه عـلى أنـه شـئ ثانـوي فلـدي أولويـات أخـرى يجـب عـلي تحقيقهـا، فـلا يوجـد وقـت في جـدولي لهـذه التفاهـات، كنـت أواسي مشـاعري الدفينـة وحبـي الخفـي للموسـيقى بـأن أسـتمع لهـا، وأعتـبر نفـسي خبـيراً بهـا لمجـرد حبـي لهـا لا أكثـر، فلـم يعـد

تعلم الكمان شيئاً مهماً بالنسبة لي في ذلك الوقت وهذا ما أندم عليه الآن ندماً شديداً، ماذا لو كنت تعلمت العزف عندما كان لدي الوقت لفعل ذلك، كان سيؤنس وحدتي في هذه الأيام المملة، أو على الأقل كان سيصبح لدي ذكريات معه، أتذكرها وأبتسم، أنا لم أحرم نفسي فقط من الحياة مع الموسيقى، بل حرمت نفسي أيضاً من الذكريات الجميلة.

سرح «ماضي» قليلاً فشعر «أحمد» أنه لم يعد معه في المكان ذاته، فعقله وروحه في مكان آخر، فقال ليعيده إلى أرض الواقع :

- أنا لم أتوقع منك هذا الكلام فانطباعي عن شخصيتك كان مختلفاً، لم يخطر ببالي أن تكون بهذه الحساسية.

ابتسم ماضي وقال :

- نعم معك حق، أنا أيضاً لم أعرف ذلك إلا مؤخراً عندما أدركت الحقيقة المُرة، ولكن دعني أقول لك لم يكن هذا حلم الطفولة الوحيد كان لدي حلم آخر، أو بمعنى أصح فكرة كنت أطمح إلى تنفيذها.

قال أحمد:

- من فضلك احكِ لي عنها.

فأذعن له وبدأ يحكي...

***

في سن العاشرة كنت قد بدأت لتوي إدراك معنى الموت والحياة، وأعرف أن هناك قوماً عاشوا في هذا العالم قبلنا وماتوا، وأنه سوف يأتي قوم أخرون بعدنا وهكذا...

فكنت دائماً أقول لنفسي إنه من المستحيل مقابلة أي من الأشخاص السابقين أو اللاحقين، فلابد أن أنتهز الفرصة في مقابلة كل شخص حي يرزق على هذا الكوكب، فنحن بالنسبة لكل من عاش أو سوف يعيش على هذا الكوكب عدد قليل، فلم لا نستغل هذه الفرصة التي لن تتكرر ونتعرف على بعضنا البعض ؟!

فقررت أنه إذا أتيحت لي الفرصة فسوف أقوم على الأقل بمصافحة يد كل شخص يعيش حالياً على هذا الكوكب، وبالفعل أُتيحت لي الفرصة على الأقل للتعرف على بعضهم ولكنني لم أنتهزها.

قاطعه أحمد متسائلاً :

- لم ذلك، فهذه فرصة مذهلة لا ينعم بها الكثير من الأشخاص.

رد عليه ماضي :

- كما قلت لك سابقاً إن الأولوية الأولى والأخيرة في حياتي كانت للعمل وكانت أغلب سفرياتي بغرض العمل إما لحضور مؤاتمرات أو تدريب وما إلى ذلك، وفي أوقات فراغي كنت أُحضر للعمل المطلوب في اليوم التالي، في كل سفرة خارج البلاد كنت أقول لنفسي غداً سأذهب لتفقد المكان ولكن لم يأت الغد أبداً، وفي بعض الأحيان كنت أفكر في السفر لبلد جديد من أجل الاسترخاء والراحة من متاعب العمل، ولكنها كانت تبقى مجرد فكرة، حتى في المرات القليلة التي قمت فيها بالسفر داخل «مصر» للاستجمام، كانت السفرة كلها عبارة عن مكالمات هاتفية تخص العمل، وبالرغم من التعامل مع الكثير من الأشخاص بمختلف الجنسيات لكنني لم أفكر أبداً في النظر لهم كأشخاص، أو حتى السعي وراء إنشاء علاقة إنسانية معهم، كانوا بالنسبة لي زملاء عمل لا أكثر.عندما أفكر في كل هذا الآن أشعر بالغيظ من نفسي، وأكره أفقي الضيق، كان كل شئ أمامي متاحاً لي، وقد أعطاني الله الكثير من الفرص الذهبية كي أحظى بحياة مفعمة بالمغامرة والحيوية، أتساءلُ دوماً كيف

كنت أعمى هكذا، كيف وصلت لما أنا فيه الآن ؟!

علق «أحمد» على كلامه قائلاً :

- معك كل الحق يا سيد «ماضي»، في كثير من الأحيان تكون سعادتنا بين أيدينا ويمكننا الحصول عليها بأبسط الطرق، ولكننا نبذل الكثير من الجهد الذي لا طائل منه بالسعي خلف أوهام نعتقد أنها ستكون سبب سعادتنا، ولكن للأسف دوماً ما ندرك الحقيقة بعد فوات الأوان..... حسناً هل لديك أي شئ تريد إضافته في هذه النقطة؟

أجابه ماضي بالنفي، فقال له أحمد :

- جيد جداً، لقد انتهينا اليوم وسوف أنتظرك غداً في الموعد نفسه لتحكي لي عن الندم الثالث، وهو عدم البوح بمشاعرك لحب عمرك هل أنت مستعد؟

أجابه «ماضي» بالإيجاب، ثم انصرف، وجاء بالفعل في اليوم التالي في موعده وطلب منه «أحمد» أن يبدأ بسرد التفاصيل وهذا ما حدث بالفعل.

الندم الثالث

عدم البوح بمشاعري لحب عمري

أثناء عملي بالمصنع قابلت «سما»، هذا الاسم لم يكن رائجاً في ذلك الوقت، ولكن لا أجد أحداً أجدر به منها كانت تعمل معي في القسم ذاته وكانت على درجة عالية من الكفاءة، فهي من ذاك النوع النادر الذي يجمع بين الجمال والذكاء. قمحية الوجة تميل إلى البياض متوسطة الطول ليست طويلة أو قصيرة، ولكنها دائماً تفضل ارتداء الكعب العالي، لا أتذكر يوماً واحداً رأيتها بدونه. وجهها مستدير وملامحها طفولية أنفها صغير جداً لا يكاد يرى بالعين المجردة، ولكنه يترك المساحة لتظهر شفتاها الخلابتان جلية للناظرين، أما النمش الخفيف الذي يتناثر على وجنتيها فيزيد من جمال شعرها الأحمر حُمرة الغسق، كانت «سما» مثل السماء بالفعل فمن الظلم

وصفها بالقمر أو الشمس فهي القمر والنجوم والشمس والكون كله. عندما كنت أراها صباح كل يوم كان عالمي يضئ فجأة وأشعر بنسمات برد خفيفة تدغدغ مشاعري فترتعش أوصالي. يمكنك أن تسمي هذا حباً من أول نظرة، ولكن كنت أشعر أنه شئ أعمق و أكبر من هذا، فمجرد وجودها في الدنيا ورؤيتها كل يوم كان كافياً بالنسبة لي، وكانت كل هذه المشاعر غير مفهومة فأنا لم أعط اهتماماً جاداً في حياتي لهذا الشئ المسمى بالحب، وكنت دوماً أعتقد أنني سوف أتزوج إنسانة بمواصفات معينة، ليس الحب من بينها، ولذلك لم أكن أفهم تلك المشاعر فهي مشاعر قريبة لما شعرت به تجاه الكمان، وكان الشبه بين «سما» والكمان كبيراً بالفعل هما الاثنان يعزفان على أوتار روحي، حاولت تجاهل هذه المشاعر كثيراً لم يكن لدي في هذا الوقت الأموال الكافية فلم أكن مستعد للزواج، ولكنني لم أستطع منع نفسي من الشعور بالسعادة عند رؤيتها أو عند التحدث معها، طلبت منها عدة مرات أن نتناول فنجاناً من القهوة معاً بعد العمل وكانت توافق، كنا نذهب إلى إحدى الكافتيريات القريبة من منزلها، كافيتريا صغيرة على النيل متواضعة الأثاث، مجرد مقاعد ومناضد خشبية متراصة بمواجهة النيل، برغم بساطة هذا المكان

لكـن إطلالتـه كانـت رائعـة، بالإضافـة إلى الهـدوء الـذي كنـا نتـوق إليـه بعـد يـوم عمـل ملـئ بالأحـداث، كان يبـث الراحـة بداخلنـا خصوصـاً في فصـل الخريـف، لسـعة الـبرد الخفيفـة كانـت تحثنا عـلى الـكلام والبـوح بمكنونـات أنفسـنا دون تفكير سـابق، كنـا نتحـدث لسـاعات ونحـن نسـتمتع بمشـهد النيـل الهـادئ، أو بمعنـى أصـح هـي تتحـدث وأنـا أسـمع ألحانهـا باسـتمتاع شـديد، خرجنـا كثـيراً وضحكنـا كثـيراً، كانـت هـي الفرحـة الوحيـدة في حيـاتي وقتهـا، وكانـت تلـك السـويعات القليلـة التـي أقضيهـا معهـا هـي الوقـت الوحيـد الـذي أتـرك فيـه العنـان لروحـي لتحلـق في سـماء «سـما»، وبالرغـم مـن كل هـذا وبالرغـم مـن تـذوق طعـم السـعادة لأول مـرة كان عقـلي يقـف لي بالمرصـاد ويذكـرني في كل لحظـة بالواقع، فأتـردد وأبعد عنهـا فجـأة دون مقدمـات ثـم يغلبنـي الشـوق فأعـود، كانـت هـي تسـتاء، لذلـك كنـت أتحجـج بحالـة والـدي الصحيـة فكانـت تسـامحني، كل هـذا دون أي وعـود أو بـوح حقيقـي بحبـي لهـا، كانـت صبـوراً وأعطتنـي الكثـير مـن الفـرص والكثـير مـن وقتهـا، ولكـن عقـلي دائـما مـا يغلبنـي فأتراجـع.

***

«اشتقت إليك فعلمني أن لا أشتاق
علمني كيف أقص جذور هواك من الأعماق»

***

جاءني في ذاك الوقت عرض الإعارة وقلت هذه فرصة جيدة لجمع المال والعودة للزواج بها عندما تصبح الظروف مناسبة، وبالفعل جمعت الكثير من المال وعدت للعمل في المصنع مرة أخرى، ولكنني فوجئت بزواجها من أحد زملائنا، كنت أرى نظراته لها من قبل ومحاولاته في التقرب منها، ولكن كنت أعلم أنها تحبني أنا حتى إن لم تقل ذلك صراحةً. حزنت كثيراً وشعرت بالخيانة وألقيت اللوم عليها بيني وبين نفسي، فماذا كانت تريدني أن أفعل ؟! أن أضحي بكل شئ من أجل أن أتزوج، أنسى طموحي ومستقبلي كي أنشىء أسرة!! من أين آتي بالمال لألبي احتياجات البيت ومصاريف الأطفال والمدارس ؟! شعرت بالغضب ورأيتها مذنبة، فهي كانت تريد أن تكون عائقاً في طريق أحلامي، وعندما رفضت أنا ذلك عاقبتي وتزوجت شخصاً آخر، وهذا ما كنت أؤمن به وقتها أو ما كنت أريد أن أصدقه...

***

«علمني كيف تموت الدمعة في الأحداق
علمني كيف يموت الحب وتنتحر الأشواق»

***

لم أتحمل رؤيتها كل يوم في المصنع هي وهذا الزميل، كنت أتظاهر بعدم الاهتمام، كنت أصدق فعلاً أنني غير مهتم، لذلك بعد مدة قصيرة قررت ترك المصنع وإنشاء شركتي الخاصة مع صديقي «فتحي كامل». كان السبب الرئيسي لاتخاذي هذا القرار هو البُعد عن «سما» بأي طريقة، ولكنني لم أعترف بذلك قط. كنت أقول لنفسي هذا هو الوقت المناسب للاستقلال وأن من الأفضل لي أن أكون رئيس نفسي وأنا أولى بمجهودي هذا، فأنا أبذل المجهود وأتعب، وفي النهاية الأموال الحقيقية تذهب لصاحب المصنع وكلام كثير من هذا القبيل، كانت أمي تلح علي كثيراً كي أتزوج مثلها مثل أي أم مصرية فقد شارفت على الأربعين عاماً، وأختي الصغيرة قد تزوجت منذ زمن بعيد وأمي كبرت في السن؛ لذلك تريد أن تطمئن عليّ وترى أولادي قبل أن يتذكرها الرحمن ولكنني دوماً كنت أجيبها مازحاً:

- لماذا أتزوج وأنفق كل أموالي على امرأة غريبة لا يوجد بيني وبينها صلة قرابة ؟ أنت وأختي أولى بذلك يا أمي.

كانت هي تسمع هذا الكلام في عدم رضاً ولا تعلق، كنت أنا أقول هذا، ولكن السبب الحقيقي هو أنه عندما أنظر للسماء فلم أكن أرى إلا «سما»، وعندما يذكر أحدهم لفظة «نساء» فلم أكن أتخيل غير «سما». ولكن عندما أنسى وجودي وأسرح في قمرها ونجومها أتذكر أنها تركتني وباعتني بثمن بخس، فأحاول أن أشتت انتباهي وأفكر في أي شئ آخر، والمضحك في الأمر أن «سما» كانت سبباً في نجاح شركتي، فكبريائي كان يريد أن يشعرني أن «سما» بلا قيمة حقيقية بالنسبة لي، فكان الانهماك الزائد في العمل هو ملاذي الوحيد، بعد عدة سنوات اعتقدت أن «سما» كانت صفحة وانطوت من حياتي تماماً، ولم أعد أفكر بها نهائياً. نجح العمل في تشتيت انتباهي عن حبي لسما وانزوى هذا الحب بجانب حبي الأول للكمان فلم يعد ظاهراً.

***

« إن كنت أعز عليك فخذ بيدي

فأنا مفتون من رأسي حتى قدمي»

***

مقاومتي الشديدة لهذه المشاعر جعلتني شخصية قاسية أكثر، وسوف ترىٰ نتيجة قسوتي هذه لاحقاً ولكن هذا ليس الوقت المناسب، المهم بعد عدة سنوات علىٰ هذه الحال التقيت بإحدىٰ الزميلات من دولة أجنبية انبهرت بها وبنشاطها وحبها لعملها، إلىٰ جانب قدرتها علىٰ الاستمتاع بحياتها، اقتربنا من بعض أكثر وبدأ يحدث بيننا استلطاف ولكن فجأة بدون أي سابق إنذار أعلنت «سما» عن وجودها، ولم أعد قادراً علىٰ خوض هذه العلاقة الجديدة، حدث ذلك رغماً عني، لم أكن أتوقعه، حاولت في البداية المقاومة وحاولت إقناع نفسي بمميزات هذه الفتاة الجديدة وأنها أفضل من «سما» بكثير، ولكن كلما زادت مقاومتي زادت سيطرة «سما» عليّ. بعد هذه التجربة أصابني الإحباط وقررت عدم خوض أي تجارب من هذا النوع مجدداً.

هـل تعلـم شـيئاً أنـا لا أتذكـر حتىٰ اسـم هـذه الفتـاة ولا أعـرف إذا كنـت أكـن لهـا مشـاعر في قلبـي في ذاك الوقـت أم أنـه مجـرد انبهـار بفتـاة أجنبيـة لا أكثـر، ولكـن الغريـب أننـي أتذكـر «سـما» جيـداً، أراهـا الآن أمامـي وهـي تضحـك ثـم تنظـر لـلأرض سريعـاً في خجـل، أراهـا وهـي ترتـدي فسـتانها المفضـل قرمـزي اللـون الـذي كنـت أذوب في أنسـجته. أتذكـر الكافتيريـا التـي كنـا نجلـس فيهـا وكلامهـا لي عـن حياتهـا ووالدهـا وحبهـا الشـديد لـه، وللأسـف أتذكـر يـوم رأيتهـا في المصنـع بعـد أن تزوجـت وهـي تتحـدث مـع زوجهـا والسـعادة تطـل مـن عينهـا. عندمـا أسـترجع هـذه الذكريـات الآن أدرك مـدىٰ غبائـي، كان هنـاك الكثـير مـن الحلـول ولكننـي لم أراهـا حينهـا، كان مـن الممكـن أن أتقـدم لخطبتهـا وأشرح لهـا ظروفي، أو عـلىٰ الأقـل كان بإمـكاني البـوح بحبـي لهـا ولكننـي لم أفعـل؛ لأن أنانيتـي أعمتنـي ولم أر غـير نفسـي كـما تعلـم، وبالسـذاجتي عندمـا تزوجـت ألقيـت عليهـا اللـوم لاسـتئناف حياتهـا، تـرىٰ كـم تعذبـت ؟ كـم مـن الوقـت انتظـرت حتىٰ فقـدت الأمـل، بالتأكيـد كرهتنـي لتركـي لهـا هكـذا، بالتأكيـد شـعرت أنهـا بـلا قيمـة لـدي وأنهـا كانـت تتوهـم .آه... لـو أسـتطع فقـط أن أقـول لهـا كـم كنـت أحمـق! وأني لم أعـرف الحـب ولم أر الشـمس والنجـوم والقمـر إلا عندمـا رأيتـك أنـت يـا «سـما».

تجمعت الدموع في عين «ماضي» فقرر «أحمد» التدخل و قال له :

- حسناً يا سيد» ماضي» هذا يكفي اليوم أعتقد أنك تحتاج قسطاً من الراحة، دعنا ننهي المقابلة الآن ونكمل غداً الحديث عن ندمك الرابع والأخير وهو خسارتك لصديق عمرك.

نهض «ماضي» من على كرسيه واتجه نحو الباب دون أن يعلق بكلمه واحدة.

الندم الرابع

خسارة صديق العمر

وصل «ماضي» في موعدة كالعادة وفتحت له السكرتيرة مثل الأيام السابقة، وقالت الكلام الذي صار يحفظه عن ظهر قلب ثم دخل إلى مكتب «أحمد مكاوي» وبعد السلام والبدايات المعتادة أسرع أحمد بالكلام :

- لم أرِد أن أتكلم أمس لما كنت عليه من حالة نفسية سيئة للغاية منعتني من التعليق ولذلك آثرت الصمت، أتمنى أن تكون بخير اليوم.

هز «ماضي» رأسه بالإيجاب وأوضح أنه أفضل حالاً اليوم، فأردف «أحمد « قائلا :

- جيد جداً، دعني أقول لك شيئاً يا سيد «ماضي» فأنا لم أقابل شخصاً في حياتي أعطاه الله كل هذه الفرص

النفيسة وأضاعها جميعاً وانجرف وراء أوهام، والحق أقول لك هذا شئ مذهل حقاً.

ظهرت علامات الضيق على وجه «ماضي» فحاول «أحمد» معالجة الموقف قائلاً :

- أنا آسف إن كنت سببت لك أي نوع من الضيق ولكنني لم أستطع تمالك نفسي، على أية حال لندع الثرثرة جانباً ونكمل ما جئنا من أجله.

***

وبدأ «ماضي» يحكي كما هي العادة...

لم أذكر لك الكثير في الأيام السابقة عن صديقي «فتحي كامل» بالرغم من دوره الكبير في حياتي. بدأت معرفتي به في المرحلة الثانوية كان يسكن معي في البناء الذي أسكن به، ووصل إلى مسامعي أنه انتقل حديثاً إلى المدرسة التي أدرس بها، ولكنني لم أعر الأمر اهتماماً فلم أكن كثير الاختلاط بجيراني.ذات مرة قابلته مصادفة على درج البناية وتصافحنا ثم عرض عليّ أن نذهب سوياً إلى المدرسة فوافقت، ومنذ ذلك الحين بدأنا الذهاب إلى المدرسة معاً كل يوم، كنا نتحدث كثيراً لنضيع الوقت وعرفت عنه الكثير من

التفاصيل، وهو أيضاً عرف عني الكثير، اكتشفت أنه يحب الكمان، ومنذ ذاك اليوم اعتبرته صديقي، كانت هذه لحظة فاصلة في علاقتنا، هو من عرفني على الهندسة الميكانيكية ومن حبه لها أحببتها أنا أيضاً، كنا نذاكر سوياً أغلب الأوقات أثناء الدراسة الثانوية وحتى أثناء الجامعة، كان «فتحي» شخصاً معطاءً وطيب القلب فلم يبخل علي بمعلومة أبداً، وكان يشرح لي دوماً إذا استعصى عليّ أمر. وإذا قلت أن «فتحي» كان بمثابة أخ لي فلن أكون مبالغاً و أنا أيضاً كنت بمثابة أخ له، وقد اكتفيت به كصديق وأخ فلم أتقرب من أي شخص آخر بعدها، كنت دوماً ما أضع حدوداً بيني وبين الناس، أقرب شخص لي غير «فتحي» كان مجرد زميل. بعد رجوعي من أمريكا كنت أبحث عن عمل كان هذا عصر الانفتاح والرأسمالية فكنت أتمنى العمل في القطاع الخاص وهذا ما ساعدني فيه «فتحي»، كان يعمل في المصنع الذي تحدثت عنه من قبل، وقد فاتح مدير المصنع في أمر تعييني، أي نعم معي شهادة ماجستير من أمريكا وتقديري العام جيد جداً ولكن وقوف «فتحي» بجانبي كان له فضل كبير في حصولي على هذه الوظيفة التي كنت أحلم بها في أسرع وقت ممكن، حتى عندما تمت ترقيتي لم أر في عينيه حقداً أو غيرة بالعكس عندما

كان يستعصي عليّ أمر كان يساعدني فيه مثلما يفعل دوماً، لكن صداقتي بفتحي لم تجعلني أنحاز له على حساب أحد الموظفين فكان الجميع عندي سواسية، كنت أفصل دوماً بين علاقتنا الشخصية وبين علاقتنا المهنية، ولكنني كنت أزيل هذا الحاجز عندما أحتاج منه مساعدة وبالرغم من ذلك فهو لم يتردد لحظة في مساعدتي، وكان يتفهم أن ما أفعله كان لصالح العمل وهو يحترم هذا التصرف ويقدره. عندما ذهبت للإعارة قالوا لي إنهم بحاجة إلى مهندسين ذوي كفاءة عالية وسألوني إن كنت أعرف أحداً كي أرشحه لهم، فلم أرشح «فتحي»، قلت لهم إنني لا أعرف أحداً، قلت لنفسي في ذاك الوقت إنني مازلت جديداً وهذه بلد غريب أريد أن أثبت نفسي فيه، فماذا إذا قمت بترشيحه ولم يكن عند حسن ظنهم ؟ سيحملونني أنا أخطاءه؛ لذلك لم أكن أريد المخاطرة بانطباعهم الجيد عني، عندما أفكر في هذا الموقف الآن أسأل نفسي هل كان هذا حقاً الدافع الحقيقي، أم أنني كنت أدرك مدى تفوق «فتحي» ومدى اجتهاده، هل كنت أخاف من شخصيته الطيبة المحببة للنفس؟ والأهم هل كنت أخاف أن يأخذ مكاني؟

حقاً لا أعرف، ولكن كل ما أعرفه هو أن هذه المبررات الواهية لم تكن الحقيقة، وأنه كان بإمكاني مساعدة صديقي وتخاذلت عن فعل ذلك عندما أتيحت لي فرصة لرد الجميل، أو حتى رد القليل منه. صمت «ماضي» قليلاً ثم أكمل حديثه بالحماسة نفسها السابقة متناسياً هذه الأفكار.

ما كنت أحبه في «فتحي» حقاً أن صداقتنا لم تكن تتأثر ببعد المسافات، فبالرغم من سفري عدة سنوات إلا أننا كنا على تواصل دائم، وكان يشجعني دائماً، حتى أنه أرسل لي (تليجرام) خصيصاً قبل موعد رجوعي إلى مصر حتى أشتري له سجائره المفضلة من السوق الحرة، فقد بذل الكثير من المجهود حينها كي تصلني هذه الرسالة، ولكن قدوم سجائره كان بأهمية قدومي انا شخصياً فلم اتعجب لما فعل، و بعد عودتي كنا نتعامل كأن شيئاً لم يكن، وكأن هذه السنوات كانت مجرد أيام أو ساعات، وكما قلت لك اكتشافي للخبر التعيس بزواج «سما» فلم أحتمل المكوث في هذا المصنع كثيراً، أردت أن أفتح مشروعاً خاصاً بي، ولكنني لم أرد استنزاف كل ما لدي من أموال فعرضت على «فتحي» مشاركتي في إنشاء شركتنا الخاصة فوافق على الفور، وأثنى على الفكرة. طبعاً قلت له إنه

يجب علينا التقدم، وأن هذا عصر الفرص، وأنه لا يوجد لنا مستقبل باهر إن ظللنا في موقعنا هذا نحن نجتهد من أجل غيرنا وهو يأخذ كل الخيرات، وما إلى ذلك.

لهذا ضحى «فتحي» بكل ما يملك من أموال لأجل هذا المشروع- هذا ما عرفته فيما بعد- ولإيمانه الشديد بي بجانب ثقته في كل هذه الأسباب كان هذا كافياً بالنسبة لفتحي كي يخوض هذه المغامرة وهو مطمئن، وبالفعل أنشأنا شركة للتصميمات الهندسية، في البداية كانت تقتصر على الهندسة الميكانيكية، ومع الوقت تطورت وأصبحت تشمل العديد من الأقسام، وحتى أعمال المقاولات، فكنا نأخذ المشروع كاملاً من بداية التصميم حتى نهاية التنفيذ، كانت الخطوة الأولى التي ساعدت على نجاح الشركة هي علاقات «فتحي» بالعديد من العملاء الذين يثقون به ويحبونه فساعدونا كثيراً في البداية، وتعرفت أنا أيضاً عليهم بواقع الأمر وأنشأت علاقة جيدة معهم ومع غيرهم.

أنا لم أقل لك إنني شخصية ودود واجتماعية جداً فيما يخص العمل لذلك كان من السهل عليّ إنشاء علاقات جيدة، والغريب أني برغم ضيق أفقي في الكثير من الأمور، فإنني كنت أتمتع بجزء إبداعي لا بأس به فيما

يخص العمل أيضاً، وإذا فكرت في الأمر ستجد أنه كان بإمكاني أن أصبح شخصاً أفضل على المستوى الشخصي والاجتماعي، ولكنني لم أهتم بذلك للأسف ولم أبذل الجهد الكافي لأكون كذلك. الوقت الوحيد الذي كنت فيه هذا الشخص الاجتماعي كان مع «سما»..... فقط «سما».

صمت «ماضي» قليلاً فأراد «أحمد» جذب انتباهه من جديد فقال :

- كل هذا جميل جداً ولكنني لم أر أي مشكلة حتى الآن يبدو أن علاقتكما وصداقتكما كانت مثالية، تحسدان عليها.

ضحك «ماضي» وقال :

- نعم يبدو أن الحسد هو السبب بالتأكيد، سوف أكمل لك وستفهم كل شيء الآن.

***

كان كل شئ يسير على ما يرام، وكنا ننتقل من نجاح إلى نجاح، حتى أنه حدث تطوير الشركة وتوسيعها في وقت أقصر من المخطط له؛ بسبب الفوز بمناقصة مشروع كبير سيوفر عملاً لعدة سنوات قادمة، وكان هذا متوازياً

مـع توقيـت قـدوم ابنـة «فتحـي» الثانيـة «سـعاد» لهـذه الدنيـا، فكانـت «سـعاد» وش السـعد علينـا كـما كانـت أختهـا «منـى» مـن قبـل، فقـد تزامـن قـدوم «منـى» إلى الدنيـا مـع زمـن إنشـاء الشركـة؛ لذلـك كنـت أحبهـما وأتفـاءل بهـما. وفي خـلال السـنة التاليـة كانـت الشركـة في قمـة نجاحهـا ولدينـا الكثـير والكثـير مـن الأعـمال والمشـاريع، كنـا نعمـل مثـل النحـل فعـلاً بسـبب أوقـات التسـليم والتعديـلات التـي يطلبهـا العميـل والتـي يجـب أن ننتهـي منهـا قبـل الوقـت المحـدد لذلـك كنـا نعمـل ليـل نهـار، وفي يـوم مـن الأيـام طلبـت مـن «فتحـي» أن يهتـم هـو بأمـر المشـتريات حتـى أتمكـن أنـا مـن الإشراف عـلى المهندسـين بنفسـي كـي نتفـادى أيـة أخطـاء أو تأخـير وهـذا مـا فعلـه «فتحـي» بالفعـل، وفي يـوم مـن الأيـام التاليـة دعـوت «فتحـي» إلى مكتبـي وكنـت في قمـة العصبيـة بسـبب الضغـط الشـديد الواقـع عـلى عاتقـي فقلـت لـه بتهكـم واضح - مشـيراً إلى سلسـلة مفاتيـح سـيارته الجديـدة التـي كان يحملهـا في يـده قبـل أن يضعهـا أمامـي عـلى المكتـب :-

- يبـدو لي أن نسـبتك مـن الأربـاح لم تعـد تكفـي مصاريـف السـيارة الجديـدة فبـدأت تبحـث عـن مصـادر دخـل أخـرى.

لم يستوعب «فتحي» كلامي في البداية فقال مستفسراً :

- ماذا تقصد يا «ماضي»، لم أستطع فهم ما تُلمح إليه.

قلت بغضب وصوت مرتفع :

- أنا لا ألمح لشئ يا «فتحي»؛ فكل شئ واضح مثل الشمس أمامي.

قلت جملتي الأخيرة وأنا أخبط على المكتب ممسكاً بالأوراق في يدي ثم أردفت متسائلاً بالنبرة نفسها:

- أريد منك تفسير حالاً لما وجدت في هذه المستندات.

فقال فتحي بصدق لم أصدقه أنا وقتها :

- ماذا وجدت يا «ماضي» أنا فعلاً لا أفهم شيئاً أرجوك وضح لي قصدك.

- لا تلعب معي هذه اللعبة يا «فتحي»؛ فوجهك الطيب هذا لن يؤثر عليّ هذه المرة، أنا أعلم جيداً أنك تفهم قصدي ولكن سأوضح لك ما أرمي إليه، أين فواتير المشتريات التي كلفتك بشرائها ؟

قام «فتحي» بسحب علبة سجائره وأشعل سيجارة كعادته عندما يتوتر ثم قال بغضب واضح :

- كلفتني!! أنا أملك هذه الشركة مثلك بالضبط، لا أعمل لديك ثم إني نسيت أن آخذ فواتير هذه المرة بسبب ضغط العمل لم أنتبه لها.

- لم تنتبه!! عذر أقبح من ذنب، هذه الأعذار غير مقبولة من مالك شركة محترم كما تقول، وحتى إن صدقتك في هذه النقطة هلّا تفسر لي أين ذهبت الأموال الناقصة من ميزانية الشركة؟ لم تنتبه لها هي الأخرى، أليس كذلك؟

- هذا اتهام لا أقبله يا «ماضي» أنا لن أقبل أبداً أن تتحدث معي بهذه الطريقة، عن إذنك.

خرج «فتحي» غاضباً من مكتبي بعد أن ألقى سيجارته نصف المشتعلة على بساط المكتب التي تركت خلفها ثقباً صغيراً ظل في المكان حتى الآن. خرج «فتحي» ولم يعلق على اتهاماتي بالنفي أو الإيجاب فأشعل غضبي أكثر، وفي اليوم التالي لم يأت إلى الشركة ولا اليوم الذي يليه، حاولت الاتصال به في منزله فرفض التحدث إلي، فأوصلت له رسالة إن لم يأت إلى الشركة سوف أعتبره متنازلاً عن نصيبه بها، ورغم تهديدي له لم يأتِ فنفذت تهديدي، وأجبرته على أن يتنازل ووافق بسهولة دون حتى

أن يتحدث إلي، أنهى كل شئ من خلال المحامي وبسبب صمته هذا تأكد الشك بداخلي، فشعرت أن ما فعلته هو الصواب، يمكن أن تقول إن هذا السبب تافه ومعك كل الحق في ذلك فهذا ما أعتقده أنا أيضاً الآن وبالذات أنه بعد شهور قليلة وصلني خبر وفاة «فتحي» إثر سكتة قلبية، المسكين لم يتحمل كل هذا الضغط -هذا ما تناهى إلى مسامعي بعد ذلك- فهو كان يعمل ليل نهار من أجل المشروع المذكور ولم يكن يأخذ كفايته من النوم أو الراحة ويدخن بشراهة وبعد اتهامي له بالسرقة لم يتحمل الصدمة، ودخل في حالة من الاكتئاب الشديد التي انتهت بوفاته، لم يتوقع ذلك من صديق عمره، قالوا لي إن كل ما كان يتمناه هو أن أعلم ببراءته، وأنه لم يسرق، كانت كبرياؤه وكرامته يمنعانه من قول هذا الكلام لي فلم يظن للحظة أنه من الممكن أن أتهمه بشئ كهذا، فقد فاق هذا الأمر توقعاته ولم يراوده حتى في أسوأ أحلامه، كانت بنات «فتحي» وجه السعد على الشركة، ولكن كانت الشركة وجه الكآبة والغم عليها.أشعر بالندم الشديد لما حدث ولا أستطيع مسامحة نفسي على أنني كنت سبب وفاة أعز أصدقائي، بل صديقي الوحيد، فسوف أحمل ذنب موت «فتحي» في رقبتي حتى أموت. عندما أنظر للأمر الآن لا

أصدق أنني فعلت هذا لم كل سوء النية هذا؟ فمن المنطقي أن أحسن النية بفتحي، فهو أثبت لي على مدار السنوات أنه يستحقها، فلماذا بحق السماء أسأت الظن به؟ هذا السؤال يقتلني ولا أعرف إجابته، صديقي أعطاني كل شئ ولم يبخل عليّ أبداً، لكن أنا لم أكتف بكل ما أخذته منه فأخذت حياته أيضاً.

قاطعه أحمد قائلاً :

- هذا غريب فعلاً، يبدو لي أنك رجل عاقل، لم أتوقع منك موقفاً كهذا، إذاً ماذا فعلت بعد ذلك؟ هل تعاملت مع أسرته مجدداً؟

أجاب «ماضي» :

- نعم، لقد أثر بي هذا الموقف وحرّك مشاعري؛لذلك حاولت التودد إلى عائلته وإحضار اللعب والهدايا لبناته برغم معاملة زوجته الراقية، فهي سيدة شديدة الاحترام والحق يقال، ولكن نظرات الاتهام واللوم كانت جليَّة جلاء الشمس في عينها، ولكنني كنت أتجاهل هذا لشعوري بالذنب وتقديري لمشاعرها، ولكن من طبع الإنسان النسيان كما تعرف، فمع الوقت بدأت أنشغل

ثانيـة بعمـلي، وعـدت مثلـما كنـت تمامـاً ولكننـي حتـى أريـح ضمـيري قليـلاً كلفـت أحـد مسـاعديّ أن يهتـم بأمورهـم إذا احتاجـوا شـيئاً وكان هـذا أقـصى صلـة بينـي وبينهـم منـذ ذلـك الحـين.

انتهى «ماضي» من الكلام، فقال «أحمد» :

- لـن أعلـق عـلى كلامـك أو أحكـم عليـك فأنـت تشـعر بالذنـب الـكافي لأفعالـك وتـدرك أخطـاءك، لا أريـد أن أزيـد عليـك ولكنـك أدركتهـا متأخـراً جـداً بعـد فـوات الأوان، عـلى كل حـال لقـد انتهـت أسـئلتي عنـد هـذا الحـد وأصبحـت أفهـم شـخصيتك جيـداً سـأقوم بتحضـير المسـتحضرات المناسـبة لـك وأرجـو منـك أن تـأتي بعـد غـد في الموعـد نفسـه حتـى نقـوم بتجربتـه.

شـعر «مـاضي» بالسـعادة عنـد سـماع ذلـك الخـبر وشـكر «أحمـد» عـلى وقتـه وأكـد لـه أنـه سـيكون عـلى أتـم الاسـتعداد.

«الحيـــاة مليئة بالاختيارات وكل اختيار نقوم به يلغي في المقابل المئات من الخيارات البديلة التي كان من الممكن أن تأخذك إلى مسارات مختلفة في الحياة، حتى الخيارات البســـيطة المتراكمة تؤدي إلى نفس النتيجة وإذا وضعت هذا الكلام في عين الاعتبارعنـــد القيام باختيارك القادم فسوف تجد بعض الصعوبة في القيام به.... فإن اختياراً واحداً يمكن أن يغير حياتك إلى الأبد»

المهمة

استيقظ «ماضي» مبكراً في اليوم التالي، وطلب من خادمه إفطاره الفرنسي المخصوص، ثم قرأ الجريدة كالعادة، فبالرغم من تذكره للكثير من أوجاع ومتاعب الماضي، ولكنه شعر براحة غريبة بعد أن باحَ بما داخله لشخص آخر، كأنه أعطى «أحمد» جزءًا من الحمل الذي يحمله فأصبح حمله أخف؛ ولهذا السبب هو رائق البال اليوم فقرر الاتصال بسائقه القديم وطلب منه أن يأتي إليه فهو يريد أن يذهب إلى التسوق. كان قد استغنى عن سائقه منذ مدة وأعطاه إجازة مفتوحة، فهو لم يعد يحب الخروج من المنزل؛ لذلك لم يكن بحاجة إليه ولكن اليوم يريد شراء ملابس جديدة حتى يبدو أنيقاً غداً، وسوف يتجول كثيراً في محلات وسط البلد؛ لذلك فهو بحاجة إلى سائق ولكن عندما طلب من السائق الاتجاه إلى وسط البلد عرض عليه سائقه الذهاب إلي أحد المولات التجارية فبها أغلب

المـاركات العالميـة، وكلهـا في مـكان واحـد مكيـف. لقـد سـمع «مـاضي» عـن هـذه المولات مـن قبـل ولكنـه لم يرها قـط؛ لذلك وافـق عـلى اقـتراح سـائقه، فهـي فرصـة لـه أيضـاً حتـى يـرى هـذا التطـور في مـصر، دخـل إلى المـول فشـعر أنـه في أوروبـا، معـمار راقٍ وعالمـي فعـلاً، كان يوجـد اخـتراع المـولات هـذا في البـلاد التـي زارهـا، قبـل وجـوده في مـصر بسـنوات عديـدة، ولكنـه لم يفكـر يومـاً في زيارتـه، لذلـك تجـده مندهشـاً ومبهـوراً بهـذا المسـتوى. نصحـه سـائقه بدخـول أحـد المحـلات، دخـل المحـل ووجـد بداخلـه ملابـس للنسـاء والرجـال فلـم يفهـم كنـه هـذا المحـل، منـذ متـى وملابـس النسـاء والرجـال في محـل واحـد؟! فعـلى حـد علمـه فـإن المحـلات إمـا رجـالي وإمـا حريمـي كل نـوع عـلى حـدة باسـتثناء «عمر افنـدي» وما شـابه؛ فأوضـح لـه السـائق أن هـذا هـو الحـال هـذه الأيـام، وأغلـب المـاركات العالميـة تعـرض ملابـس للجنسـين معـاً. سـلم أمـره وأخـذ يتفقـد الملابـس فوجـد بنطـالاً مـن الجينـز مهترئـاً في كثير مـن الجوانـب، ووجـد سـعره مرتفعـاً، فشـعر بالتناقـض فهـذا البنطـال يبـدو أنـه بنطـال عامـل مناجـم، وقـد تـبرع بـه لإحدى المؤسسـات الخيريـة بعـد أن اسـتهلكه اسـتهلاكاً كامـلاً، لم يبـدُ هـذا منطقيـاً بالنسـبة لـه، فأوضـح لـه السـائق مـرة أخـرى أن

هـذه هـي الأزيـاء الرائجـة، وأن هـذه هـي ملابـس الأغنيـاء الآن، لم يستوعب «مـاضي» ذلـك وشـعر أنـه قـد اتخـذ القـرار الصحيـح عندمـا قـرر اعتـزال العـالم في السـنوات الأخـيرة، ثـم منـذ متـى يلبـس الأغنيـاء ملابـس الفقـراء المسـتخدمة ؟!

فعـلى حـد علمـه كان الأغنيـاء يفضلـون الحريـر والكشـمير والأقمشـة باهظـة الثمـن.

ولم يتوقـف الأمـر عنـد هـذا الحـد فوجـد شـيئاً آخـر أغـرب، وهـي عبـارة عـن سـترات مقطعـة ومتسـخة تبـدو كالملابـس التـي يرتديهـا النقـاش أثنـاء عملـه، أو مثـل قطـع القـماش المسـتعملة التـي تسـتعملها الأمهـات المصريـات في الحمامـات والمطابـخ، حـاول تجاهـل هـذه الأمـور الغريبـة التـي لا تنتهـى حتـى لا يشـتت انتباهـه عـما جـاء مـن أجلـه، وبعـد تفقـد العديـد مـن المحـلات وجـد شـيئاً يصلـح بصعوبـة بالغـة، فشـعر بسـعادة الظفـر بعـد كل هـذا المجهـود، ذهـب إلى منزلـه مرهقـاً وطلـب مـن السـائق أن يـأتي غـداً ؛لأن لديـه مشـواراً مهـماً فانصـاع لـه السـائق، وعندمـا دخـل إلى المنـزل طلـب مـن الخـادم إعـداد الغـداء والحـمام حتـى يسـتحم ويـأكل ثـم ينـام... حتـى يـوم غـد، فاليـوم مرهـق وغـداً مـليء

بالأحداث. استيقظ مبكراً واستعد كالعادة وجاءه سائقه قبل الموعد بعدة ساعات، فطلب منه مشاركته الإفطار قبل أن يتحركا.

- ١ -

استقبله «أحمد» بودٍ غير متكلف، مثلما يفعل المدرس مع تلميذه إذا قابله صدفة أثناء الإجازة الصيفية، ثم قال له على الفور :

- يا مرحبا، نورت يا أستاذ «ماضي» لقد قمت بإعداد مستحضرات تناسبك تماماً، وأعتقد أنك ستسعد بها ويمكن أيضاً أن تطالب بها لكي تستخدمها فيما بعد.

ضحك «ماضي» فأكمل «أحمد» :

- أريد فقط في البداية أن أوضح بعض الأشياء، سوف نحتاج حوالي ثلاث ساعات في التحضير، وقد تم إزالة كل شئ يمكن أن يعكس صورتك، لذلك أريدك أن تكون صبوراً معي.

هز «ماضي» رأسه متفهماً فقال «أحمد» في عُجالة :

- حسناً، هيا نبدأ.

***

استرخى «ماضي» على الكرسي وأرجع رأسه قليلاً إلى الخلف كما طلب منه «أحمد»، وكان أمامه عدد كبير من الأدوات أثارت دهشة «ماضي»، فهو يحاول فهم كيف سيستوعب وجهه كل هذا فبالمنطق المساحة المتاحة في وجهه غير كافية لكل هذه الأشياء، ولكنه تجاهل الأمر، وحاول الاسترخاء.بدأ «أحمد» بالثرثرة مثل أي حلاق مخضرم فقال:

- ألا تتمنى أن يعود بك الزمن فتصلح ما فعلت وتغير مسار حياتك يا «ماضي».

هذه المرة الأولى التي يرفع فيها «أحمد» التكليف تماماً، ولكن هذا شئ ارتاح له «ماضي»، فهو يشعر الآن أنه صديقه ليس مجرد «ميكاب أرتيست» فأجاب بصدق :

- أكيد أتمنى هذا ولكنني أعلم أنه مستحيل.

قال «أحمد» :

- نعم بالفعل ولكنني (أدردش) معك، فأنا أتخيل فقط،

ولكن إذا فرضنا جدلاً أنه قد أتيحت لك الفرصة لإصلاح شئ واحد أنت نادم عليه فماذا ستختار؟

قال «ماضي» بدون تردد :

- كل شئ بالتأكيد.

ضحك «أحمد» قائلاً :

- لا تكن طماعاً يا ماضي اختر شيئاً واحداً.

فكر «ماضي» للحظات ثم قال :

- كنت سأختار أن أحضر جنازة والدي وأراه للمرة الأخيرة، فأنا أعلم أن هذا قدره وعُمره وتغيير هذا ليس بيدي، ولكن كنت أتمنى رؤيته ولو لدقائق وأن أقف بجانب أمي وأختي فأنا أشعر بالإحراج الشديد لموقفي المتخاذل تجاههما، وكنت أكره عواقب هذا الموقف، أكره هذا الحاجز الذي بنيته بيدي بيني وبينهما دون قصد. لم أكن أتحمله، ويؤلمني وجوده بشدة حتى الآن.

صدق «أحمد» على كلامه واستمر في الثرثرة، فسأله عن انطباعه وهو يضع مستحضرات تجميل وإحساسه العام بالتجربة وما غيرت فيه.

استمر هذا الوضع ثلاث ساعات كما أوضح «أحمد» من قبل حتى انتهى أخيراً مما يفعله، . أحضر مرآة لماضي حتى يرى نتيجة مجهود هذه الساعات الطويلة وكانت المفاجأة....

***

«لو أني أعرف أن البحر عميق جداً ما أبحرت

لو أني أعرف خاتمتي ماكنت بدأت»

***

-٢-

نظر «ماضي» في المرآة لثوانٍ، ولكنه لم يستوعب في البداية فنظر مجدداً، وقال في دهشة :

- ما هذا ؟! ما هذا المكياج المتقن؟ أنت حقاً تستحق لقب «الميكاب أرتيست»، ثم أردف وهو يتحسس وجهه :

- أنا لا أصدق عيني فوجهي يبدو كأنه عاد العديد من السنوات إلى الخلف كأنها حقيقة، ليست مجرد مستحضرات تجميلية.

ضحك «أحمد» ضحكة خبيثة ثم قال له بثقة :

- ولكن هذا حقيقي بالفعل يا «ماضي»

اتسعت عينا «ماضي» على آخرهما وقال :

- م..م..ماذا.....أنا....أنا لا أفهم أي شئ.

قال «أحمد» بذات الابتسامة والهدوء :

- هـدئ مـن روعـك قليـلاً ودعنـي أشرح لـك حقيقـة هـذه التجربـة التـي أنـت عـلى مشـارف خوضهـا الآن.

***

عـلى مـدار الأيـام القليلـة الماضيـة كان الدكتـور «مصطفـى بـركات» ومسـاعده الدكتـور «هيثـم عبـد الغفـور» يتابعـان جميـع المقابـلات مـن خلـف هـذه المـرآة العاكسـة، الموضوعـة خلـف مكتبـي لهـذا الغـرض بالـذات. أنـا «أحمـد مـكاوي» خبـير التجميـل والعـالم الكيميائـي، لقـد تابـع د.«مصطفـى» جميـع المقابـلات باهتـمام شـديد فهـذه تجربـة العمـر بالنسـبة لـه، ولكـي تسـتطيع فهـم مـا يحـدث بالضبـط سـوف نحتـاج إلى العـودة إلى بدايـات العـام ٢٠١٤ م، أي منـذ أكثـر مـن ثـلاث سـنوات، حينـما حكيـت عـن تفاصيـل اخـتراع ثـوري أقـوم بالعمـل عليـه في هـذه الأثنـاء لصديقـي د. « مصطفـى بـركات» بروفسـيور علـم النفـس الاجتماعـي بجامعة بنسـلفانيا الأمريكيـة، برغـم الفـارق الكبـير في السـن بيننـا ولكـن عليـك معرفـة أن التفاهـم والوفـاق همـا أسـاس هـذه الصداقـة، والأفـكار غـير المألوفـة التـي نتشـاركها تقـوي مـن صداقتنـا أيضـاً. الاخـتراع الـذي أتحـدث عنـه، وكان مـازال قيـد التنفيـذ في هـذا الوقـت ولم يكتمـل بعـد عبارة عـن مسـتحضرات تجميل

عُولجت كيميائياً كي تتفاعل مع خلايا جسم الإنسان لتخفي علامات تقدم السن بصفة عامة، ليس فقط تجاعيد الوجه ولكن أيضاً تجاعيد الجسد والخلايا، بمعنى آخر من يضع هذه المستحضرات تعود كل ذرة في جسده لعمر الشباب. كان هذا الكلام ضرباً من الخيال ولا يبدو منطقياً بالنسبة للدكتور «مصطفى»، ولكنه برغم ذلك قام بتشجيعي كما يفعل دوماً كي أستكمل أبحاثي، عسى أن أصل لنتيجة، فعلاً فالدكتور «مصطفى» عقلية متفتحة تقبل الأفكار الغريبة ولا يحب إصدار الأحكام المتسرعة، بل يفضل أن يتريث ويأخذ الوقت الكافي لدراسة أي فكرة مهما كانت قبل الحكم عليها بشكل نهائي، نعود مرة أخرى لبداية عام ٢٠١٤ م، عندما عرضت نتائج أبحاثي الأولية على صديقي «مصطفى» قال لي في ذلك الحين:

- أنت تعلم أن نجاح تركيبة مثل هذه ضرب من الخيال والوصول لها غاية في التعقيد، ولكن أنا أشجعك ومعك بكل قلبي ومجهودي إذا أردت ذلك، ولكن إذا نجحت فأنا أريد استخدامها في شئ أعمق من مجرد مستحضر يعيد الشباب.

قاطعته مستفهماً :

- ما هو هذا الشئ، لقد أثرت انتباهي، أنا معك في كل الأحوال قبل أن تقول، ولكن اشرح لي أرجوك .

ضحك د. مصطفىٰ علىٰ صديقه المتسرع دائماً، أعترف أنا «أحمد مكاوي» : أنني أختلف في هذه النقطة عن صديقي الهادئ «مصطفىٰ بركات» فأنا متسرع ومتحمس دائماً، ولقد أفادتني هذه الحماسة في كثير من الأحيان وأضرت بي في أحيان أخرىٰ ولكن وجود مخ عبقري مثل مخ صديقي «مصطفىٰ» بجانبي جعلني أستفيد من هذه الصفة دائماً الاستفادة القصوىٰ.

أجابني «مصطفىٰ»:

- تريث قليلاً يا صديقي، أعطني أنت الفرصة فقط وسوف أشرح لك كل ما يدور في خلدي.

قاطعته ثانية كعادتي قائلاً :

- وأنا كلي أذان مُصغية أكمل، أرجوك.

وبالفعل قام «مصطفىٰ» بشرح فكرته لي قائلاً :

- إذا استطعنا صُنع مستحضر يعيد الشباب لم لا نقوم بعمل تجربة نفسية على أحد المسنين الذين يعانون من الندم الشديد على بعض الأفعال التي قاموا بها في الماضي، نقوم بوضع هذا المستحضر له وندرس ردود أفعاله ونرى كيف سيتعامل مع فرصته الثانية، هل سيغير الماضي بعد أن عرف نتيجة اختياراته، أم عندما تتاح له الفرصة ويكون عليه الاختيار مرة أخرى سيتردد في تغيير الماضي، ويبقى كما هو؟ وإذا كان جريئاً بدرجة كافية وقرر التغيير بالفعل، فهل هو مستعد لتحمل التضحيات التي سيقدمها مقابل الاختيارات الجديدة ؟ وفي النهاية هل سيكون سعيداً بهذه التجربة، أم ستزيد حياته بؤساً ؟»

قاطعته مرة أخرى -يبدو أنك توقعت هذا- قائلاً بحماس :

- فكرة هائلة يا «مصطفى»، أنا أرغب في تنفيذها من الآن.

ابتسم مصطفى لتسرعي المعتاد وقال :

- هنـاك معضلـة كبـيرة إذا افترضنـا إمكانيـة إعـادة الشـخص لسـن الشـباب، فكيـف سنسـتطيع إرجـاع عالمـه كلـه إلى الخلـف؟ لأنـه إذا عـاد شـباباً في الوقـت الحـاضر لـن يكـون لديـه فرصـة لإصـلاح أخطـاء المـاضي، وفي هـذا الوقـت لا يوجـد جـدوى حقيقيـة مـن التجربـة.

غمغمت في أسى وقلت :

- معـك حـق يـا «مصطفـى»..... ولكـن سـنجد لهـا حـلاً بـإذن الله.

طمأنني «مصطفى» وقال :

- لا تقلـق يـا أحمـد اسـتمر أنـت في أبحاثـك ودع هـذا الأمـر لي سـأجد لهـا مخرجـاً بـإذن الله.

***

اتصـل «مصطفـى» بصديقـه وعـالم الفيزيـاء العبقـري «هيثـم عبـد الغفـور» وشرح لـه الموقـف عسـى أن يجـد لديـه حـلاً، فقوبـل بحـماس شـديد مـن جانـب «هيثـم»، وطلـب منـه جميـع الأوراق والمعـادلات التـي اعتمـدت عليهـا أنـا في بحثـي ووعـده بدراسـة الأمـر والـرد عليـه في أقـرب وقـت، وبالفعـل لم يمـر الكثـير مـن الوقـت حتـى توصـل «هيثـم» لفكـرة

مبدئية وبادر بمشاركتها مع «مصطفى» من البداية، فقام بالاتصال به هاتفياً يشرح له الأمر باختصار وقال له :

- دون مقدمات، لقد توصلت لفكرة أرى أنها يمكن أن تساعدنا كثيراً.

رد مصطفى قائلاً :

- بهذه السرعة!! يبدو أنك متحمس حقاً لهذه التجربة وهذا يسعدني كثيراً، هيا قل لي ما هي فكرتك إذاً ؟

بدأ هيثم في شرح فكرته قائلاً :

- بعد قراءة أبحاث د.«مكاوي» وجدت أنه باستخدام المعادلات التي اعتمد عليها في بحثه يمكننا أن نضيف مادة تصدر ذبذبات فتخلق مجالاً كهرومغناطيسياً يتفاعل مع العالم المحيط بالمتطوع الذي ستقام عليه التجربة فيقع على الكون من حوله التأثير الواقع عليه، مثلاً إذا عاد جسم الشخص المختار ٢٠ عاماً للوراء يعود معه الكون المحيط به بنفس النسبة أي عشرين عاماً إلى الوراء»

قال مصطفى مفكراً :

- هـذه الفكـرة غريبـة، ولم أقـرأ أو أسـمع عنهـا في أي بحـثٍ علمـي.

رد هيثم قائلاً :

- هـذه فكـرة تعتمـد عـلى اتصـال بـين الطبيعيـة والعلـم مثـل الحالـة في الأقـمار الصناعيـة باسـتخدام معـادلات نيوتـن عـن الجاذبيـة، اسـتطاع الإنسـان تطويـع الكـون في صالحـة، فأطلـق الأقـمار الصناعيـة الثابتـة في الفضـاء والتـي تـدور باسـتخدام الجاذبيـة ألا وهـي الطبيعـة، في هـذه الحالـة وتطويعهـا لمسـاعدة الأقـمار الصناعيـة في الـدوران حـول الأرض في المـدار المحـدد لهـا مـن قبـل الإنسـان، أي أننـا سـوف نطـوع العلـم ليتماشـى مـع الطبيعـة فنحصـل عـلى النتيجـة التـي نبغيهـا وكأننـا نتحكـم في الطبيعـة ؛ولذلـك إذا اسـتطعنا فهـم الطبيعـة جيـداً يمكننـا تطويعهـا في صالحنـا.

سكت «مصطفى» قليلاً ليهضم الكلام ثم قال :

- امم....ولكـن يـا هيثـم هـذا مثـال بعيـد بعـض الشـئ، فالموضـوع يتطلـب منـك مجهـوداً كبـيراً؛ لأنـك تقريبـاً سـتبدأ مـن الصفـر، ولا يمكنـك الاعتـماد عـلى نظريـة الأقـمار الصناعيـة هـذه في أبحاثـك؛ لأنهـا بعيـدة بعـض الشـئ.

رد «هيثم» بنبرة بها الكثير من الإصرار :

-أعلم أن نظرية الأقمار الصناعية بعيدة، ولكن أنا أحاول توضيح الفكرة لك ليس إلا، وبما أن البشر استطاعوا تطويع الطبيعة بهذه الطريقة مرة، فبالتأكيد يمكننا أن نفعلها مجدداً، وبالفعل يوجد الكثير من التطبيقات الأخرى لهذه النظرية، ليس فقط الأقمار الصناعية، فهذا التطبيق أقوله لك على سبيل المثال وليس الحصر، وحتى إن كنت سأبدأ من الصفر فلا يهم يا «مصطفى» مهما تتطلب الأمر من مجهود فأنا مستعد.

رد مصطفى في إعجاب :

- دائماً ما يعجبني إصرارك، أتمنى لك كل التوفيق يا صديقي العزيز.

ثم أنهى المكالمة.

***

بعد أن أنهى «أحمد» كلامه واتضحت الصورة أمام «ماضي» وعرف حقيقة ما يحدث حقاً أردف «أحمد» قائلاً :

- أعتقد أنك الآن استنبطت جزءاً من شخصية د. «هيثم عبد الغفور»، شخص لديه الكثير من الإصرار والصبر

ويمكـــن أن نقـــول بأريحيـــة إنـــه مـــن الأشـــخاص الذيـــن يصلـــون لمـــا يبغـــون بســـهولة. وبالدكتـــور «هيثـــم» اكتملـــت الدائـــرة، وأصبـــح الـــكل مشـــغولاً بالتحضـــير للحـــدث الكبـــير، التجربـــة النفســـية التـــي ســـتحدث ثـــورة في مجـــال الكيميـــاءو الفيزيـــاء وعلـــم النفـــس الاجتماعـــي، وبعـــد فـــترة مـــن المحـــاولات نجحـــت تجـــارب د. «هيثـــم» وأصبـــح كل شـــئ جاهـــزاً، ينقصنـــا فقـــط المتطـــوع الـــذي ســـيقوم بالتجربـــة، حاولنـــا أولاً في أمريـــكا ولكـــن أغلـــب النـــاس في هـــذه البلـــد ســـعداء نوعـــاً مـــا، خصوصـــاً الكبـــار في الســـن. الكثـــير منهـــم نادمـــون حقـــاً ولكنهـــم يفهمـــون الحيـــاة أكثـــر منـــا كعـــرب ومصريـــين فـــلا يطـــاردون الأوهـــام مثلنـــا حتـــى يفوتهـــم قطـــار العمـــر، وحتـــى إن حـــدث ذلـــك فالحكومـــة تهتـــم بهـــم بعـــد التقـــدم في العمـــر، وتعطيهـــم الأولويـــة في الكثـــير مـــن الأشـــياء وتوفـــر لهـــم سُـــبل الراحـــة الممكنـــة، وهـــذا بالطبـــع يهـــون عليهـــم الكثـــير، لذلـــك لم نجـــد الشـــخص الـــذي نطمـــح إليـــه، فقررنـــا العـــودة إلى «مـــصر» والبحـــث هنـــا وبالفعـــل نجحنـــا كـــما تـــرى.

صمـــت «أحمـــد» قليـــلاً حتـــى يعطـــي «مـــاضي «فرصـــة ليهضـــم مـــا قالـــه للتـــو ثـــم أردف قائـــلاً بعـــد برهـــة :

- والآن قد فهمت كل شيء، هل أنت مستعد لمقابلة د. «مصطفى» و د. «هيثم» ؟

كان «ماضي» يستمع لكل هذا الكلام فاغراً فاه رغماً عنه فكل هذه المعلومات مرة واحدة أثقلت عقله، فظل صامتاً لفترة حتى بعد أن انتهى «أحمد» من الكلام، ظل على هذه الحال حتى بدأ «أحمد» بالكلام مجدداً للفت انتباهه، ووقتها قال له «ماضي» دون تركيز شديد:

- نعم...نعم لا مشكلة.

في هذه الأثناء دخل «مصطفى» ومعه «هيثم» إلى الغرفة وعندما رأى «مصطفى» أن «ماضي» يجلس في الركن الأيمن من الغرفة ويبدو عليه التوتر ابتسم له، ولكن «ماضي» لم يبادله الابتسام فمازال سارحاً في أفكاره يحاول استيعاب ما سمعه للتو، فقرر «مصطفى» الكلام لتخفيف حده الموقف والتوتر العام في الغرفة فقال لماضي مداعباً :

- مبروك يا أستاذ «ماضي» لقد أتتك فرصة لا تأتي لأحد، لو كنت مكانك الآن لرقصت فرحاً.

ثم مد له يده ليصافحه قائلاً :

- أنـا «مصطفىٰ بـركات»، متخصـص في علـم النفـس الاجتماعـي، إن لم تكـن خمنـت هـذا.

مـد «مـاضي» يـده لـه وهـو يحـاول السـيطرة عـلىٰ مشـاعره المتضاربـة، وقـال في اقتضـاب غـير مقصـود:

- تشرفت بمعرفتك.

بـدأ «مصطفـىٰ» بالحديـث معـه في مواضيـع أخـرىٰ لكـسر الثلـج كـما يقـول الأمريـكان، ولكـي يخرجـه مـن دهشـته سـأله عـن حياتـه بصفـة عامـة، وكيـف يقـضىٰ يومـه، ثـم بدأ بسـؤاله عـن عمله كمهنـدس وعن شركته التـي تركهـا الآن .. مع الوقت كانـت حالـة «مـاضي» تتحسـن خاصـة عندمـا بـدأ «مصطفـىٰ» بالتحـدث عـن عملـه كمهنـدس، شـعر «مـاضي» براحـة نسـبية وأعجـب بشـخصية «مصطفـىٰ» الـودود فسـأله مسـتفسراً :

- اعـذر جهـلي يـا دكتـور «مصطفـىٰ» ولكـن مـا هـو «علـم النفـس الاجتماعـي» هـذا فقـد سـمعت عـن «علـم النفـس» وعـن «علـم الاجتـماع» ولكـن هـذا العلم لم أسـمع عنـه قط.

ابتسم «مصطفىٰ» وبدأ يشرح له :

- لسـت وحـدك، فمـن الطبيعـي ألا تسـمع عنـه فهـو بعيـد عـن مجـال تخصصـك، ولكـن دعنـي أشرح لـك مـا هـو،

كما يعرف الكثير من الناس فإن علم النفس هو علم يسعى لدراسة سلوك الكائنات الحية وخصوصاً الإنسان وهذا من أجل فهم هذا السلوك وإيجاد طرق مختلفة للتحكم به، أما علم الاجتماع فهو علم يهتم بسلوكنا ككائنات اجتماعية أو دراسة تصرفات مجموعة من البشر ككتلة واحدة، ويهتم أيضاً بالتاريخ الاجتماعي للإنسان.

نأتي إلى موضوعنا ألا وهو علم النفس الاجتماعي يمكننا القول إنه : علم يجمع بين العلمين السابقين ويعتبر فرعا من فروع علم النفس، فهو يهدف إلى دراسة سلوك الإنسان كفردٍ تجاه أفراد آخرين أو تجاه أشياء، بمعنى أصح هو علم يدرس ردود فعل الإنسان كفرد تجاه العوامل الخارجية أياً كانت هذه العوامل؛ من أفراد، حيوانات أو أشياء مادية ويطلق على هذا التصرف: «التفاعل الاجتماعي»، والهدف الأساسي من هذا العلم هو خلق مجتمع أفضل قائم على فهم سلوك الفرد والجماعة.

- لقد فهمت نوعاً ما، ولكن يبدو أن الموضوع أكثر تعقيداً من فهمي المحدود.

- لا بالعكس دعني أعطيك مثالا يُسهل عليك الأمر قليلاً، هناك تجربة شهيرة قام بها الباحثون في هذا

المجـال، أطلقـوا عليهـا «تجربـة سـجن سـتانفورد» أو **"The Stanford prison experiment"**.كانـت تهـدف هـذه التجربـة الشـهيرة لفهـم الصراعـات التـي تحـدث في السـجون، ومـاذا يحـدث إذا وضعنـا أشـخاصاً معروفـاً عنهـم الطيبـة وحسـن السـلوك في بيئـة شريـرة سـلبية، هـل سـتطغى القيـم والأخـلاق وتنتصر أم سـيتأثرون بهـذه البيئة الخارجيـة؛ لذلـك قـام الباحثـون باختيـار أربعـة وعشريـن مـن طـلاب الجامعـة يمتـازون بحسـن الخلـق والاسـتقرار النفـسي، وتـم تقسـيمهم إلى مجموعتـين، اثنـا عـشر فـرداً منهـم يمثلـون المسـاجين والآخـرون يمثلـون الحـراس، وتـم وضعهـم جميعـاً في قبـو جامعـة سـتانفورد الـذي تـم تجهيـزه ليبـدو مثـل السـجون الحقيقيـة بالضبـط، عقـد مدير السـجن أو الباحـث الـذي يدعـى «زيمبـاردو» اجتماعـاً مـع فريـق الحـراس وأعطاهـم كل الصلاحيات لفرض سـيطرتهم عـلى السـجناء مـا عـدا اسـتخدام العنـف الجسـدي ولكن أي شـئ آخـر متـاح، مثـل إخافتهـم، قمعهـم ومـا إلى ذلـك، وأكـد لهـم أنهـم يملكـون جميـع الصلاحيـات والسـلطة، وأن الآخريـن لا يملكـون شـيئاً، كـما أعطاهـم ملابـس مثـل ملابـس الحـراس الحقيقـين ونظـارات شـمس عاكسـة حتـى لا يسـتطيع السـجناء رؤيـة أعينهـم، وبالفعـل بـدأ الحـراس

في أول يوم استغلال هذه الصلاحيات الممنوحة لهم، فتم تجريد السجناء من ملابسهم ونعتهم بأقبح الألفاظ ولكن شيئاً لم يحدث، فقد أطاعهم السجناء بسلاسة، فلم يسعد «زيمباردو» بهذا، وشعر أنها ستكون تجربة طويلة ومملة، ولكن في اليوم الثاني قرر السجناء التمرد، وشعر الحراس أن الوضع يخرج عن سيطرتهم، غضب الحراس ومارسوا العديد من المضايقات تجاه المساجين مثل : إيقاظهم في منتصف الليل أو إجبارهم على تنظيف المرحاض بأيديهم، أشياء لم يتخيلوا أنه من الممكن صدورها منهم في يوم من أيام حياتهم العادية، ومع الوقت بدأ الوضع في التدهور وانهار أحد السجناء، وبدأ بالصراخ الشديد وادّعى الجنون حتى يدعوه يخرج، ولكنهم طالبوه بغرامة كي يدعوه يذهب قبل انتهاء المدة المتفق عليها فعاد إلى زملائه وأقنعهم أن «زيمباردو» لن يدعهم يخرجون من هنا إن أرادوا هم ذلك، بالرغم من أن «زيمباردو» لم يذكر شيئاً كهذا قط، ولكن هذا المسجون أراد إثارة البلبلة بين السجناء، ومن هنا كانت بداية السجن الحقيقي..بدأ السجناء في الاستسلام لهيمنة الحراس حتى عندما قام شخص آخر برفض هذا الظلم اعتبروه مثيراً للمتاعب

ولم يتعاطفوا معه على الإطلاق، تدهورت الأوضاع سريعاً وازداد الحراس توحشاً مع كل لحظة يشعرون فيها بالهيمنة والسيطرة، فقرر «زيمبادرو» إنهاء التجربة قبل الوقت المحدد لها حتى ينهي هذه المهزلة.

- يبدو أنه علم مثير للاهتمام.

- جداً، ودعني أقول لك إن دراسته ممتعة للغاية ولكنها خطيرة.

***

بعد هذه الدردشة المثيرة تحسنت حالة «ماضي»، فقال له «مصطفى» بلهجة عملية:

- حسناً يا سيد ماضي، أرى أنك أفضل حالاً الآن .. دعنا نتحدث في تفاصيل تجربتنا نحن.

صمت لوهلة ثم أردف :

- أولاً لقد عدت إلى سن الشباب كما تعرف وسوف يتغير الكون كله معك كما أوضح لك «أحمد» من قبل، ولكن يجب أن أطلعك على بعض الأمور، أولاً أمامك فقط أربعة وعشرون ساعة، لقد قمنا بتجربة المنتج كما قلنا لك سابقاً وتحكمنا أيضاً بإزالته بأنفسنا ولكن

أغفل «أحمد» أن يخبرك أنه بأي حال من الأحوال لن يستمر أكثر من يوم واحد، أي أربعة وعشرين ساعة أو أقل، حاولنا إطالة المدة أكثر من مرة وللأسف هذا ما استطعنا التوصل إليه، ولكن الجانب المشرق أننا استطعنا التحكم في العمر المراد العودة إليه، فيمكن أن نجعلك في أي عمر تريده؛ لذلك أعدناك إلى عمر الثلاثة والثلاثين عاماً، ثانياً أود.....

قاطعه «ماضي» وقال في إحباط :

- ولكنني لا أريد هذا العمر.

تعجب «مصطفى» وقال له :

- ولكن هذا ما قلته لـ «أحمد» عندما كان يضع لك المكياج، ألم تقل له إنك تتمنى حضور جنازة والدك !!

- أنا أعرف ما قلت ولكنني كنت أقوله من باب التمني لم يأت ببالي أن هذه الأمنية ممكنة التحقيق لذلك كنت أحلم، ولكن بما أن الأمر بيدي الآن فأنا أريد عمراً آخر.. أريد أن أعود لعمر الثمانية والعشرين.

قال له مصطفى :

- آه، فهمت تريد أن تكون أكثر شباباً ولكن عمر الثلاثة والثلاثين هو عمر أهل الجنة؛ أي أكثر الأعمار شباباً وحيوية، ثم أردف مازحاً:

- يالك من طماع!!

رد ماضي نافياً:

- لا، ليس طمعاً على الإطلاق ولكن لدي أسباب أخرى أريد أن أحتفظ بها لنفسي.

- حسناً، من الجيد ذكر هذه النقطة .. كنت أوضح لك بعض الشروط سابقاً، وثاني شرط أريد أن أوضحه لك هو أنه لا توجد أسرار، سنضع لك كاميرا وميكروفون حتى نستطيع متابعة يومك ولكن ستكون رؤيتنا للموقف محدودة، لذلك نريد منك أن تأتي إلينا هنا بعد انتهاء التجربة لتحكي لنا تفاصيل يومك كله حتى تكتمل الصورة لدينا، وثالثاً - وهذا الأهم- لا يمكنك إزالة المكياج في أي وقت، إما أن نزيله نحن وإما أن يذهب المفعول من تلقاء نفسه حتى لا تحدث أية مضاعفات غير محسوبة من الإزالة الخاطئة، فأنت تعلم أنه منتج جديد ولا يزال قيد الاختبار؛ لذلك لا نعرف كل الآثار الجانبية الناتجة عن استخدامه

لذلك توخ الحذر من فضلك والتزم بالتعليمات.

أخذ نفساً ثم أكمل كلامه :

- وبالنسبة لسن الثمانية والعشرين، سوف يعمل «أحمد» على تحقيق ذلك دون أسئلة الآن احتراماً لرغباتك، ولكن أتمنى أن تكون مستعدا للبوح بمكنونات نفسك عندما نحتاج لذلك، أتمنى لك كل التوفيق وتذكر أن أمامك يوما واحدا فقط لتغيير حياتك بالكامل .. يجب أن تدرك أهمية ذلك وتفكر جيداً قبل أن تأخذ أي خطوة، فكل تغيير بسيط تقوم به في الماضي سيكون له أثر كبير في المستقبل.

هز «ماضي» رأسه متفهماً وغمغم قائلاً:

- نعم، نعم معك حق .

ثم وعده أن يضع كلامه في الاعتبار .. شكره د. «مصطفى» لتعاونه، ثم ترك الغرفة وهو يدعو له بالتوفيق.

***

بعد خروج « د. مصطفى» طلب «أحمد» من «ماضي» الجلوس لتلبية رغبته وإجراء التعديلات المطلوبة، بعد الانتهاء كان «أحمد» يشعر بالإنهاك، فهو يعمل لأكثر من

أربع ساعات وبتركيز شديد، وفي الأوقات الطبيعية كان «ماضي» سيشعر بالتعب أيضاً، ولكن اليوم مختلف كما تعرف، فهو يزداد حماسة مع الوقت. أعطاه «أحمد» قلادة غريبة في كيس بلاستيك شفاف وطلب منه أن يضعها حول رقبته فور خروجه من المبنى، سأله «ماضي» عن كُنه هذه القلادة وعن فائدتها، فأجابه «أحمد» :

- هذا ما استطاع د. «هيثم» الوصول إليه، حاولنا في البداية أن نضع مادة في المكياج نفسه تُعيد الزمن، ولكننا فشلنا، وبعد تفكير وجدنا أنه من الأفضل التحكم في كل شئ على حدة، وإلا فبمجرد وضعي للمسات الأخيرة من المكياج سوف أختفي تلقائياً دون إرادة مني، فصنع د. «هيثم» هذه القلادة لتؤدي الغرض وهي لا تعمل إلا بملامسة الجسد لذلك لا تخرجها إلا بعد أن تخرج من البناية .

أوضح «ماضي» تفهمه، فابتسم له « أحمد» ودعا له بالتوفيق وتمنى له حياة أفضل.

هبط «ماضي» الدرج ولم يُرد استخدام المصعد، أراد أن يختبر جسده الجديد، فلم يخذله كما كان يفعل دائماً، كانت دقات قلبه تزداد مع كل درجة يصعدها، وكان يضغط على القلادة بكلتا يديه دون قصد، وصل لباب البناية ووقف قليلاً

يفكر، تنهد وغمغم «بسم الله الرحمن الرحيم»، ثم أخرج القلادة من الكيس البلاستيكي وقام بارتدائها حول رقبته وهو ينظر إلى الأرض، وفجأة بدأ الكون يتغير من حوله.

***

- ٣ -

نظر خلفه فلم يجد البناية من الأساس، ففهم لماذا أصر د.«أحمد» على عدم ارتدائه القلادة وهو بداخلها، أخذ نفسا عميقا مفعما برائحة الذكريات وابتسم .. هو سعيد جداً الآن، لم يتوقع قط أن يُقدم على هذه المغامرة العجيبة، كانت أقصى طموحاته الخروج من المنزل لأي هدف والسلام، وأن يلتقي ببعض الأشخاص، وأن يكرمه الله أكثر فيتحدث معهم قليلاً، ولكن هذا ... ما يحدث الآن يفوق خياله وكل توقعاته، الحماس يغلبه فلا يعرف من أين يبدأ، منذ أن أخبره د. «أحمد» بحقيقة التجربة وهو يُعد خطة بما سوف يفعله بالحرف، ولكن الآن بعد أن أصبح كل شئ حقيقة فعلاً ،بدأ يشعر بالتخبط ونسي كل شئ خطط له، كأنه لم يخطط له من الأساس، قرر أن يتمشى قليلاً حتى يُهدئ من روعه ويرتب أفكاره من جديد، ولكن ما يراه حوله لا يساعده على التركيز، كلما حاول ترتيب

أفكاره، عيناه الجائعة لا تشبع أبداً فيتشتت انتباهه بما يراه. بعد أكثر من نصف ساعة بدأ التحكم في انبهاره وحاول استعادة عمليته المعهودة حتى ينفذ ما جاء من أجله، فهو لا يملك الكثير من الوقت. المشكلة أن المسافة طويلة، فبحث عن محفظته وفتحها فوجد ما كان يأمل وجوده بداخلها ..أمواله عادت هي الأخرى للعصر نفسه، سعد جداً لذلك، فسوف يسهل هذا عليه الكثير، قرر في هذه اللحظة البحث عن سيارة أجرة كي تقله للمكان الذي يريده، ولكنه لم يجد حوله سيارات أجرة، حيث كانت هذه المنطقة - التي تقع بحي مصر الجديدة- نائية نوعاً ما، لم يكن حوله سوى القليل من البنايات السكنية المتباعدة التي يراها على مرمى البصر، وكان المكان الذي يقف فيه مجرد أرض ترابية، وكان من خلفه مسجد تحت الإنشاء، وُضع أساسه وتم صب الخرسانات المسلحة للأسطح والأعمدة، التي تم دعمها بالشدات الخشبية، فبدأت ملامح المسجد تظهر للعيان، هذا المسجد الذي سيصبح أحد أشهر مساجد هذه المنطقة فيما بعد، بجانبه بناية قبيحة المنظر مازالت في مرحلة البناء أيضاً، ماضي يكره الطابع المعماري الذي بدأ مع سبعينيات هذا القرن، فالتصميمات لم يبذل فيها أي مجهود فني، فتشعر أنها ليست

بنايات سكنية، بل علب كرتونية لحفظ الأحذية، متراصة بجانب بعضها البعض في إهمال، وازدهر هذا النوع القمئ في ثمانينيات القرن العشرين، حتى أنهم أطلقوا عليها لفظ «البلوكات» وهو تشويه لكلمة **"blocks"** الإنجليزية والتي كانت تعني في الماضي (قوالب)، أو القطع الصلبة من المواد كقطعة ضخمة من الخشب أو الصخر، ولكنها الآن أصبحت كناية عن مجموعة من المباني السكنية، أي أنهم يعترفون بجرمهم على الملأ بضمير مستريح، حمداً لله على أن هذه البناية مازالت قيد الإنشاء، فهو لا يريد لأي شئ أن يعكر صفو اليوم، ولكن المشكلة الآن أن المنطقة نائية ؛ لذلك وجد سيارة الأجرة بصعوبة بالغة. صعد إلى السيارة وأملى على السائق العنوان، فرد عليه السائق بأدب واتجه للمكان المقصود، انشرح قلب «ماضي» فهو يفتقد هذه المعاملة الكريمة، ذات مرة تعطلت سيارته واضطر إلى أن يلجأ إلى سيارة أجرة وكانت المأساة، فتوقيف موكب لرئيس الجمهورية والحديث معه أسهل من إيقاف سيارة أجرة والتحدث مع سائقها، كان مذهولاً من الموقف، أكثر من عشر سيارات أجرة مرت أمامه في ذلك اليوم، كل سائق يقف لثوانٍ معدودة ويسأل عن المكان قبل أن يدعه يركب، ليس ذلك فقط، فهو لم يكن يستطيع إكمال الجملة

بالعنوان المقصود حتى ينظروا إليه بازدراء ثم يرحلوا، لا يعلم لم كل هذه العجرفة المنتشرة بين سائقي الأجرة، حتى السائق الوحيد الذي تكرم ووافق أن يقلّه طلب ضعف الأجرة، وعندما اعترض «ماضي» على استحياء- فكان نقاشا أكثر منه اعتراضا- هدده السائق بأن يلقيه خارج السيارة فانصاع «ماضي» لطلبه دون المزيد من المناقشة؛ لذلك هو يفتقد هذا التعامل المهذب فحاول الاستمتاع به قدر المستطاع. للأسف نحن لا نقدر قيمة الأشياء البسيطة الجميلة في حياتنا إلا عندما نفقدها أو نرى وجهها السيئ، كم مرة تمنينا شيئاً وبعد أن حصلنا عليه بدأنا نعتاده فلم يعد بذات الأهمية، نسينا الليالي التي كافحنا فيها للحصول عليه، تناسينا إحساس اليأس عندما كان الحلم صعب المنال، وبعد أن أصبح بين أيدينا قررنا البحث عن حلم آخر، ولم نعد نُعير الحلم القديم اهتماما. كان «ماضي» غارقاً في أفكاره فلم يسمع السائق الذي بدأ بجذب أطراف الحديث معه، فسائق التاكسي يحب الثرثرة كما نعلم، يبدو أنها عادة متوارثة من أيام قدمائنا المصريين. اعتذر «ماضي» للسائق لعدم انتباهه فقال السائق :

- ولا يهمك يا أستاذ، ماذا أتى بك إلى هذه المنطقة النائية؟

مـن حسـن حظـك أننـي كنـت أنقـل بعـض الأشـخاص هنـا، لـولا هـذا لظللـت في مكانـك طـوال اليـوم.

رد ماضي :

- حمداً لله أنني وجدتك إذاً.

- ولكـن مـا هـذه القـلادة الغريبـة التـي تضعهـا حـول رقبتـك، لم أرَ مثلهـا مـن قبـل؟!

- هذه ... هدية من والدتي لذلك أحب ارتداءها دائماً.

-آه، فهمـت الله يبـارك لـك فيهـا، هـل مازالـت عـلى قيـد الحيـاة؟

-آاه... نعم

- ربنـا يخليهالـك وتـرى أولادك، عندمـا رأيـت هـذه القـلادة الغريبـة ظننـت أنـك مـن شـباب هـذه الأيـام لا تؤاخـذني لذلـك، لكـن بـما أنهـا مـن الوالـدة فيجـب عليـك ارتداؤهـا فعـلاً، فالجنـة تحـت أقـدام الأمهـات كـما تعـرف.

- نعم، معك حق.

بالرغـم مـن إجابـات «مـاضي» المختـصرة لكـن السـائق لم يتوقـف عـن الـكلام فأكمـل قائـلاً :

- شباب هذه الأيام عجيب جداً يا أستاذ، صحيح ما هي مهنتك ؟

-أنا أعمل مهندساً ميكانيكاً.

-مهندس!! أهلاً وسهلاً يا باشمهندس نورت التاكسي والله.

- بنورك، شكراً لك.

أكمل السائق وكأنه لم يسمعه :

- كما كنت أقول لك يا باشمهندس شباب هذه الأيام قمة في الغرابة، ليسوا مثل حضرتك هكذا محترمين وأولاد ناس راقية، يرتدون هذه البناطيل الواسعة عجيبة المنظر فوقها القمصان الضيقة جداً ذات الألوان الكثيرة التي تتعب الناظرين، تشعر أن القميص سوف يتمزق إذا أكل أحدهم وامتلأت معدته، هذا زمن ما يعلم به غير ربنا، يبدو أننا في نهاية العالم يا باشمهندس أليس كذلك؟

ضحك «ماضي» بداخله .. هذا الرجل يتحدث بحماس شديد ويصدق كل كلمة يقولها حتى أن «ماضي» يتخيله إذا رأى شباب القرن الحادي والعشرين إما سيُجن ويذهب إلى مستشفى الأمراض العقلية وإما سيصاب بانهيار عصبي حاد.

- معك حق، فهذا زمن لا يعلم كنهه إلا الله فعلاً!

قال «ماضي» جملته الأخيرة ثم سبح في نهر أفكاره من جديد، حاول السائق إخباره بوصولهم للمكان المنشود، ولكن لم ينتبه له «ماضي» حتى بدأ السائق في الصياح، سمعه واعتذر له على عدم تركيزه، ثم أعطاه الأجرة المذكورة في قراءة العداد وترجل من السيارة بهدوء، أخذ نفساً عميقاً ثم دخل إلى المكان الذي جاء من أجله، كان المكان المقصود عبارة عن مسمط بجانب بيته القديم.. منذ أن ترجل من التاكسي وهو يشم رائحة الأكل الزكية التي تدغدغ مشاعره بالحنين ومعدته بالجوع، أول شئ وقعت عيناه عليه منذ دخوله هذه المنطقة هي بناية منزله القديم التي تقع في نهاية الشارع الذي يقف على أوله الآن، نظر إلى البيت طويلاً وتنهد ثم سقطت منه دمعة رغماً عنه وهو يبتسم للبيت كأن البيت ينظر إليه هو أيضاً بذات الحنين ويشعر بأحاسيسه، لم يتخيل «ماضي» أنه يفتقد هذا البيت بهذه الشدة حينما رآه حتى غرغرت عيناه بالدموع وتمنى أن يحتضنه بين ضلوعه .. لم يكن يتخيل أن هذا الكم من المشاعر محفور في أعماقه و ينتظر الوقت المناسب للخروج، بالنسبة لأي شخص آخر هذه بناية عادية مثل أي بناية

أخرى يمكن أن تكون أقل من العادية بمراحل كثيرة ولكن بالنسبة لماضي هي بناية أساسها براءته، أعمدتها الأمل وسقفها طموحه الذي كان ينمو بداخله مع نمو خلايا جسده، وهذا الشارع الذي كان يحفظه عن ظهر قلب يأخذه ذهاباً وإياباً كل يوم أكثر من مرة .. مشى قليلاً في الشارع والذكريات الدافئة تتوافد في عقله .. ملأ صدره بهواء الشارع المفعم بالذكريات، ولكن معدته نبهته أنها لا تزال فارغة فقرر الذهاب إلى المسمط الذي طالما ذهب إليه بعد عودته من العمل أو أيام الإجازات فقد كان قريبا وأكله لذيذ جداً أي متكامل الأوصاف، دخل المطعم وهو يبتسم للجالسين فهو يعرف الكثير منهم حتى بادره أحدهم قائلاً :

- لقد تأخرت كثيراً يا باشمهندس «ماضي» لم كل هذا التأخير؟!

- معذرة يا حاج لقد كان الطريق طويلاً.....طويلاً جداً.

بادره شخص آخر بالكلام يبدو أنه صاحب المحل أو أحد العاملين به فقال:

- صحيح يا باشمهندس لم أرك منذ مدة طويلة، لم نعتد منك طول الغياب.

- اعذرني يا معلم أشغال والله.

جلس «ماضي» على طاولته المفضلة وهو يثرثر ويضحك مع من حوله، حتى بادره الحاج بالكلام مرة أخرى:

- اعذرني يا بني ولكن ما هذه القلادة الغريبة التي ترتديها على صدرك؟

-آآه..لا.. هذه لا شيء، قلادة يجب أن نرتديها في المصنع لـ.. للتمييز بين العمال والمهندسين، فكما تعلم العدد كبير ولا يعرف الجميع بعضهم البعض.

-آه فهمت، ولكن تبدو غريبة جداً، أنتم المهندسين لكم أشياء مختلفة عن باقي البشر، ربنا يكرمك ويفتحها في وجهك.

- الله يكرمك يا حاج هذا من ذوقك.

هذا ما قاله «ماضي» للرجل ولكن بداخله قال:

-الله يخرب بيتك يا أحمد، العالم ملئ بالقلادات المختلفة ولم تجد سوى هذه القلادة الضخمة التي تجعلني أبدو مثل مطربي الراب الأمريكيين لتعطيها لي!!

ولكن حمداً لله أنه فصل الخريف، فقرر «ماضي» أن يداريها بين ثيابه حتى لا تثير المزيد من المتاعب.بعد فترة نسي أمرها تماماً وبدأ الاستمتاع بوقته من جديد، هذا المكان من الأماكن القليلة التي يكون فيها «ماضي» على سجيته، فصاحب المسمط صديق والده ويعتبر «ماضي» ابناً له ؛ لذلك يوده «ماضي» دائماً حتى لو لم يكن ذاهباً لتناول الطعام .أنزل النادل الأطباق على الطاولة دون أن يطلب «ماضي» أي شيء، فهو يعرف ما يحبه دون الحاجة لسؤاله، أكل «ماضي» باستمتاع وشهية مفتوحة حتى أنهى كل ما وضع أمامه من طعام.

***

كان «أحمد» ومن معه في المكتب يتابعون كل هذه الأحداث في صمت و اهتمام شديدين من خلال الشاشة الموجودة أمامهم، فجأة كسر «أحمد» الصمت وقال لزملائه:

- ما هذا؟! أعطيناه أغلى شيء يمكن أن يحصل عليه في حياته فيذهب ليأكل في مسمط !! ما هذا التهريج؟ يا له من شخص ضيق الأفق!!

رد عليه «مصطفى» مهدئاً من روعه:

- اهـدأ قليلاً يـا «أحمد» لا تكـن متسرعاً ودعنا لا نحكـم مبكراً.

قال «هيثم» مازحاً:

- لا أسـتطيع رؤيتـه وهـو يـأكل جيـداً، ولكـن ممـا أسـمعه مـن صـوت مضـغ وبلـع يمكننـي أن أجـزم أنـه خـاض هـذه التجربـة ليـأكل فقـط.

رد مصطفى:

- دعـه يسـتمتع بوجبتـه، مـن المؤكـد أنـه يفتقـد هـذه الأشـياء وهـذا شـعور إنسـاني طبيعـي ومتوقـع، دعونـا نـرى مـاذا سـيحدث لاحقـاً، فالأحـداث الحقيقيـة لم تبـدأ بعـد.

وبالفعـل كان «مـاضي» متشـوقا لهـذا النـوع مـن الأكل، فلقـد مُنـع مـن تناولـه منـذ زمـن بعيـد. بعـد برهـة مـن الزمـن والأكل و المـزاح مـع مـن حولـه، قـرر «مـاضي» أخـيراً أن يذهـب إلى مـكان آخـر، أوقـف سـيارة أجـرة مـرة أخـرى، فوقـف السـائق بـكل احـترام كالمـرة السـابقة دون السـؤال عـن المـكان، فأخـبره «مـاضي» بالمـكان المقصـود وتمنـى مـن قلبـه ألا يكـون هـذا السـائق ثرثـاراً مثـل الـذي يسـبقه، وحمـداً لله كان عـدد الـركاب كبـيرا فلـم يبـدأ السـائق الـكلام مـع أي منهـم ومشـى في طريقـه في صمـت.

قال «أحمد» مجدداً وهو يتابع:

- يبدو أنه لم يستطع العثور على سيارة أجرة فارغة في هذه المنطقة المزدحمة، فركب واحدة مليئة بالركاب ،أنا لا أسمع أي شيء من هذه الأصوات المتداخلة ولا أستطيع أن أرى جيداً، من منكم اشترى هذه الكاميرا وهذا الميكروفون؟

رد هيثم أنه هو من فعل، فأردف «أحمد»:

- ألم تجد شيئاً أسوأ من هذا؟ فهما لا يعملان تقريباً.

قال هيثم مبرراً:

- لقد أكد البائع لي أنهما من أفضل الأنواع الموجودة في السوق حالياً وأعلاها كفاءةً.

قال د. مصطفى ضاحكاً:

- من الواضح أنك لم تأت إلى مصر منذ زمن طويل يا «هيثم»، كان يجب أن تعرف أنه نوع ردئ ولا تشتريه، أعتقد أنه كان يجب عليك الاستعانه بأحد أقاربك المقيمين هنا لينجز هذه المهمة.

***

في هـذه الأثنـاء كان «مـاضي» قـد وصـل لوجهتـه المقصودة، فنظـر أحمـد إلى الشاشـة أمامـه وقـد استشـاط غضبـاً ثـم قال:

- هـذا الرجـل سـوف يكـون السـبب الرئيـسي في إصابتـي بأزمـة قلبيـة، يضيـع وقتـه الثمـين في الأكل والآن يذهـب إلى الملاهـي!!! أعصـابي لا تحتمـل أكثـر مـن ذلـك.

صمـت قليـلاً ليتمالـك أعصابـه ولكـن محاولتـه بـاءت بالفشـل فصـاح مجـدداً:

- هـل كان هـذا الرجـل يخدعنـا؟ أمضيـت معـه أسـبوعاً كامـلاً وهـو يتحـدث عـن ندمـه وحسرتـه عـلى ما ضـاع من عمـره هبـاءً، والآن عندمـا أتـت لـه الفرصـة لإصـلاح كل ما فعـل عـلى طبـق مـن ذهـب يضيعهـا هـي الأخـرى؟! ثـم مـن يذهـب إلى الملاهـي في هـذه السـن أصـلاً، فهـو يبلـغ الآن الثامنـة والعشريـن مـن العمـر ليـس الثمانـى سـنوات، الحـق أقـول إن لم أمـت بسـبب هـذا الرجـل فسـوف أصـاب بالجنـون قبـل انتهـاء هـذه التجربـة.

لم يقتـصر التوتـر عـلى «أحمـد» فقـد كان «هيثـم» أيضـاً متوتراً ويبـدو عليـه الضيـق، فحـاول «مصطفـى» تهدئـة هـذه الأجواء المشـحونة، ولكنـه كان مؤيـداً لـكلام «أحمـد» هـذه المـرة، فهـو مندهـش مـن تصرفـات «مـاضي» الغريبـة، شـخص آخـر مكانه

أو شخص يشعر بما يشعر به كان سيتصرف بشكل مختلف تماماً، ولكنه حتى الآن يثبت نظرية أن الشخص لن يتغير حتى إذا أُعطيَ فرصة ثانية، وفي الغالب سيرتكب نفس الأخطاء ويقوم بنفس الأفعال عندما يخوض الموقف نفسه بذات الظروف، وهذا مثير للاهتمام حقاً، على كل حال كما نعرف عن« مصطفى» أنه هادئ الطباع غير متسرع في أحكامه؛ لذلك قرر أن يراقب «ماضي» في صمت ويدع الأحكام والتحليلات جانباً حتى انتهاء التجربة.

***

كان الدخول لعالم الملاهي مغامرة في حد ذاته بالنسبة لشخص مثل «ماضي»، فهو لا يتذكر متى كانت آخر مرة دخل فيها مثل هذا المكان، إنه لا يتذكر أصلاً إذا كان قد ذهب لمكان مثل هذا من قبل، شعر أنه طفل صغير متحمس ومنبهر بكل ما حوله وكانت سعادة غريبة تنمو بداخله يبدو أن هذا المكان محاط بهالة إيجابية تصيب الأشخاص المتواجدين فيه، كان المكان مزدحماً رغم أن الوقت عمل، ولكنه وجد الكثير من الكبار والصغار بمظهر واحد، وهو المرح، الابتسامة التي يراها على وجوههم دفعته للابتسام هو الآخر فظلت

الابتسامة على وجهه طوال فترة تواجده في هذا المكان، رأى أمامه لعبة تبدو صعبة قليلاً فأراد أن يختبر جسده الجديد بركوبها، انتابه شعور غريب جداً، كان مثل الرجل الذي اشترى سيارة سباق جديدة بعدما كان يملك سيارة قديمة لا تتعدى سرعتها ال ٤٠ كيلو/ الساعة. في كل لحظة يشعر فيها أن جسده سيخونه يخيب ظنه ويصمد حتى إنه بعد اللعب والمرح لأكثر من ثلاث ساعات لم يشعر بالتعب بالعكس كان بكامل نشاطه، لكنه قرر الذهاب إلى مكان آخر فوقته محدود ولديه الكثير ليفعله.

قال «أحمد»:

- أتمنى ألا يصيبني بجلطة قلبية هذه المرة.

رد عليه د. مصطفى:

- هدئ من روعك يا أحمد، يبدو أنه ذهب للمصنع الذي كان يعمل به وهذا شئ مبشر.

كان «مصطفى» محقاً، لقد ذهب «ماضي» إلى المصنع القديم بالفعل ويبدو عليه التوتر، كان هذا الوقت قبل تعيينه كنائب للمدير بأسابيع قليلة، لذلك ذهب إلى غرفة مكتبه القديم في قسم «الهندسة الميكانيكية». عندما دخل إلى الغرفة رأته

«سما»، ابتسمت له ثم نظرت للأرض فأشرقت أساريره بهذه الابتسامة التي تداعب مشاعره دائماً، كم كان يفتقدها!

***

« الموج الأزرق في عينيك يناديني نحو الأعمق
وأنا ما عندي تجربة في الحب ولا عندي زورق»

***

بدأت «سما» بالكلام فقالت له:

- لقد جئت متأخراً جداً، لقد شارف اليوم على الانتهاء، لقد ظننتك لن تأتي اليوم.

قال وهو مازال ينظر لها ويبتسم:

- كانت لدي بعض الأمور التي أريد الانتهاء منها أولاً.

- أتمنى أن تكون قد أنجزت وأنهيت ما كنت تريد، ولكن ما هذا الشيء العجيب الذي يظهر تحت قميصك؟ هذه قلادة أليس كذلك؟

-مم..ماذا ..نع.. نعم إنها قلادة فعلاً.

ثم غمغم قائلاً بصوت خفيض:

- الله يخرب بيتك يا دكتور «أحمد».

لم تسمع «سما» آخر جملة فقالت:

- ماذا قلت؟

- لا شيء .. لا شيء، دعكِ من موضوع القلادة وقولي لي هل جاء «فتحي» اليوم ؟

- لا لم يأت بعد، ربما تكون لديه بعض المهام مثلك.

فهم «ماضي» ما تقصد فضحك ولم يعلق، ثم قال متظاهراً بالبراءة:

- ما رأيك أن نذهب سوياً لنبحث عنه عسى أن يكون بالداخل يتفقد إحدى الماكينات.

وافقته «سما» الرأي وذهبت معه إلى داخل المصنع، حيث يوجد الكثير من العمال الذين يعملون بجد ونشاط، ما لبث أحد العمال أن رأى «ماضي»، وكان يدعى «صالح»، حتى أسرع إليه ليلقي عليه التحية، كان «صالح» رجلا كبيرا نسبياً، تعدى عمره الخمسين عاماً حتى أصبح الشعر الأبيض على رأسه أكثر بكثير من الشعر الأسود، وبالرغم من أنه في الخمسينات من العمر إلا أنه يبدو أكبر سناً بكثير بسبب الإرهاق الظاهر على وجهه،

لديه عين لامعة توحي بالذكاء، ووجهه يوحي بطيبة لا تخطئها العين. لم ينتبه «ماضي» إلى أن عم «صالح» يحاول الوصول إليه فحاول عم «صالح» لفت انتباهه قائلاً:

- يا باشمهندس...يا باشمهندس «ماضي».

انتبه «ماضي» وما إن وقعت عيناه عليه حتى ابتسم له ابتسامة صادقة قائلاً:

- أهلاً يا عم «صالح» أين أنت منذ مدة طويلة يا رجل؟ أعتقد أنك لم تأت لمدة أربعة أيام إن لم أكن مخطئاً.

- أنت لا تخطئ أبداً يا باشمهندس .. عايشين بوجودك والله.

- لا تقل هذا يا رجل يا طيب ربنا يكرمك ويبارك في أولادك، كيف حال ابنتك، فقد كنت أحاول الوصول إليك في الأيام السابقة للاطمئنان عليها.

- ابنتي و طفلها والجميع يدعون لك بالخير يا باشمهندس، منذ أن علمت أنك تكفلت بجميع مصاريف ولادتها المتعسرة وهي تدعو لك الله أن يبارك لك في عمرك يا باشمهندس.

- لم أفعل غير الواجب، حمداً لله على سلامتهما، أوصل لهم تحياتي.

لم يتوقف الرجل عن الدعاء، فشعر «ماضي» بالإحراج ولم يدر ماذا يقول فابتسم له وربت على كتفه واستأذنه أن يذهب، ثم عاد إليه ونظر في عينيه قائلا:

- سوف ألقي بأمانة على كاهلك... أبلغ الباشمهندس «فتحي» ألا يغضب من «ماضي» مهما صدر منه.

يصمت «صالح» لبرهة وهو يحدق في عين« ماضي» ثم يومئ برأسه متفهماً:

- ربنا لا يقدر يا باشمهندس انتم أخوة، ولكن سأبلغه على كل حال.

يربت»ماضي» على كتف «صالح» من جديد، ثم ينظر نظرة سريعة حوله قبل أن يذهب، ولكن لا أثر لفتحي في المكان، فشعر بالإحباط ولكن يعزيه ما سينقله له «صالح».. أين الهاتف المحمول الآن، كان سيساعده لينهي مهمته هذه. عاد إلى غرفة المكتب وحاول ألا يستسلم للإحباط ونظر إلى الجانب المشرق، فسما موجودة على الأقل وهذا شئ مهم، جلس على مكتبه بعد عودته وقال

لسما وهو يخط في ورقة أمامه دون أن ينظر لها:

-سما .. أريد أن أتحدث معك في موضوع مهم.

ثم صمت وهو مازال يعبث بالورقة التي أمامه ولا ينظر لها، فكسرت «سما» هذا الصمت وقالت :

- أنا أسمعك .. قل لي ما هذا الموضوع المهم فكلي آذان مصغية.

ألقى «ماضي» الورقة التي كانت في يده بإهمال في درج المكتب، ثم استجمع شجاعته وقام من مكانه ساحباً «سما» من يديها وهو يقول :

- هيا بنا من هنا لا يمكن الكلام هاهنا.

تفاجأت «سما» وحاولت الاعتراض فقال لها :

- لا يوجد لدينا الكثير من الوقت وأريد التحدث معك كثيراً.

تعجبت «سما» من الموقف :

- أنا لا أفهم أي شئ.

فرد عليها «ماضي» وهو مازال يجرها من يديها:

- سوف تفهمين كل شئ ولكن لنذهب الآن.

أذعنت له «سما» وذهبا لمكانهما المعتاد ، الكافتيريا المتواضعة نفسها ذات الإطلالة الرائعة، بعد برهة قصيرة من الحديث في أمور عامة قاطعهم النادل قائلاً :

- سعيد برؤيتك يا باشمهندس «ماضي»، ولكن لم كل هذا التأخير فلم نرك منذ مدة طويلة.

- كان لدي الكثير من الأعمال ولم أجد أي وقت للراحة، اعذرني.

- المهم أنك بخير يا باشمهندس، نورتينا يا آنسة «سما»

- بنورك يا «محمد»

فقال محمد قبل أن ينصرف:

- هلا أجلب لكما طلبكما المعتاد أم شيئاً آخر.

فرد «ماضي» :

-بلى، نريد نفس الطلب بالتأكيد، شكراً لك يا «محمد».

هز «محمد» رأسه متفهماً.فور ذهاب «محمد» قرر«ماضي» الدخول في صلب الموضوع حتى لا يضيع المزيد من الوقت فقا ل :

- سما.....أنا أحبك ولن أحب غيرك ما حييت ولن أقابل مثلك مهما حاولت.

احمرت وجنتا «سما»، فقد كانت تنتظر هذه اللحظة منذ مدة ولكنها لم تتوقع هذه المفاجأة، فنظرت إلى الأرض ولم ترد، فأكمل «ماضي» قائلاً:

- بدون الكثير من المقدمات، فأنا أريد أن أكمل حياتي معك، إن لم أتزوجك فلن أتزوج قط، ولكن ظروفي في هذا الوقت غير مناسبة للزواج فهل تقبلين الوقوف بجانبي حتى نستطيع تكوين أسرة معاً.

هزت «سما» رأسها موافقة وهي مازالت تنظر إلى الأرض، فسعد «ماضي» لسماع ذلك وقال وهو يبتسم لها في حنان:

- لن أتركك تضيعين من يدي مجدداً، فهل لي أن أقابل والدك لقراءة الفاتحة؟ وتأكدي أنني سأبذل قصارى جهدي كي أعجل بالزواج، فلن أتركك بعيداً عني كثيراً يا سمائي.

تعجبت «سما» من كلمة «مجدداً» هذه، ولكنها قررت تجاهلها واعتقدت أنها خطأ بسيط نتيجة التوتر فلن تسأل

كثيراً على أية حال، فهي لا تريد أن تعكر صفو هذه اللحظة، تريد فقط الاستمتاع بها قدر المستطاع.

حاولت استجماع شتات نفسها فقالت له وهي تنظر له ذات النظرة التي تذيبه:

- ياااااه يا «ماضي» .. لقد توقعت أن ينطق أبو الهول قبل أن تنطق أنت.

ضحك «ماضي» وقال في بداخله:

- ماذا لو علمت أنني لم أكن سأتكلم على الإطلاق؟!

ثم قال لها مازحاً:

- أنا خجول كما تعرفين، وهذا الموقف تطلب مني الكثير من الشجاعة والعمر الطويل كي أستطيع البوح بمشاعري بهذه الجرأة.

كلامه غريب، ثم ما كنه هذه القلادة الغريبة؟! هذا ما قالته «سما» لنفسها، ولكن هو قالها وكفى، كادت أن تفقد الأمل، بل بدأت الظنون تلعب بها وتخيلت أن ما تشعر به كان مجرد أوهام لا أساس لها من الصحة.

لم تجد شيئاً آخر تقوله، فهي مازالت تشعر بالخجل الشديد والتوتر ولا تعلم لماذا تريد أن تنهي اللقاء الآن، ربما تحتاج بعض الوقت كي تستوعب ما حدث، فقالت له على عُجالة:

- يجب أن أذهب الآن .. الوقت قد تأخر كثيراً.

توسل إليها أن تنتظر قليلاً لأنه يفتقدها - بالرغم من أنهما يتقابلان يومياً- ولكنها لم تنصَع لطلبه هذه المرة وقالت له إن والدها سوف يشعر بالقلق من تأخرها، وهي لا تريده أن يربط ذلك بماضي حتى لا يأخذ انطباعاً سيئاً عنه منذ البداية. اقتنع «ماضي» بكلامها، في ذلك الزمان لم يكن مقبولاً خروج فتاة مع شخص بعلم الوالدين كما يحدث الآن، فهو يدرك جيداً أن الوضع حساس وهو لا يريد أن يخسرها لأي سبب كان، لذلك تركها تذهب رغماً عنه.

لم يذهب هو الآخر لأي مكان هذه المرة، ولكنه جلس وحيداً في الكافتيريا لفترة طلب خلالها فنجاناً من القهوة وجلس يفكر لبرهة من الزمن، ثم قرر دفع الحساب و ترك المكان وذهب وكأنه عزم على أمر ما.

***

«يا كل الحاضر والماضي يا عمر العمر
هل تسمع صوتي القادم من أعماق البحر
إن كنت قويا أخرجني من هذا اليم
فأنا لا أعرف فن العوم»

***

كانوا في مكتب «أحمد مكاوي» مازالوا يحاولون فهم ما يحدث من خلال وسائل الإرسال التالفة التي ابتلاهم بها «هيثم». كان «ماضي» في هذه الأثناء قد وصل لمنزله الذي يقطن به حالياً، وفي هذه الأثناء بدأ «أحمد» في الصياح مجدداً دون مقدمات كعادته:

- ماذا يفعل هذا المجنون !! أنا لا أصدق هذا .. هل.... هل ما أراه صحيحاً؟

قال «أحمد» هذا و هو يطيح بالطاولة التي أمامه بينما كان «مصطفى» يضع يده على جبهته في أسى، أما «هيثم» فكان فاغراً فاه ينظر إلى الشاشة دون أن ينطق بكلمة.

الإرسال مستمر في الانقطاع .. ظنوا في البداية أنها مشكلة تقنية في الأجهزة كالعادة، ولكن تأكدت شكوكهم

عندما رأوا ما يفعله «ماضي»، فور وصوله للمنطقة التي يسكن بها بدأ في إزالة المستحضرات عن وجهه ومعها كان يزيل أجهزة الاتصال، فلم يكن تلف الأجهزة طرفاً هذه المرة في التشويش، بل كان «ماضي» شخصياً هو السبب. لم يصدق أحد من المتواجدين في المكتب أنه يفعل هذا حقاً، تطلب الأمر منهم بعض الوقت لفهم ما يحدث، لم يكن متوقعاً منه التمرد.

بعد انقطاع الاتصال نهائياً، شعر ثلاثتهم أن أحلامهم تنهار أمامهم فلم يتوقع أحد منهم حدوث هذا التطور، بل لم يتوقع أحد من «ماضي» هذا التصرف، لم تدل شخصيته على أي نوع من أنواع التهور أو الأفعال غير المحسوبة، ليس هذا فقط، بل لا يوجد مبرر أصلاً لهذا الفعل الأهوج .. ساد الصمت لدقائق ثم تكلم «مصطفى» قائلاً:

- دعونا ننقذ ما يمكن إنقاذه، يجب ..

قاطعه «هيثم» وهو الذي التزم الصمت طوال فترة الاختبار، ولكنه لم يعد يحتمل أكثر من هذا فقال:

- ننقذ ماذا يا دكتور «مصطفى»؟! هذا شخص مجنون غير قادر على تحمل المسئولية ولا يؤتمن، أراهنك أننا إذا كنا نتعامل مع طفل في عمر السادسة لما تصرف

هكـذا، كان عـلى الأقـل تـصرف بعقلانيـة أكثـر مـن ذلـك، لا أصـدق أن هـذا الرجـل الـذي أُعطـي الفرصـة لإصـلاح حياتـه والتخلـص مـن النـدم الـذي يقتلـه لم يفعـل شـيئاً سـوى أكل وجبـة دسـمة، بعدهـا ذهـب ليلهـو، والشـئ الوحيـد الصحيـح الـذي فعلـه أنـه اعـترف لفتـاة بحبـه، أنـا أشـعر أننـا نتعامـل مـع فتـى مراهـق لا يفكـر، أنـا لا أحـب الاستسـلام ولم أعـترف بـه يومـاً، ولكـن أعتقـد أنـه بالنسـبة لهـذه التجربـة علينـا أن نكـون أكثـر صدقـاً مـع أنفسـنا ونعـترف أننـا فشـلنا ونبـدأ بالبحـث عـن شـخص جديـد لعلنـا ننجـح هـذه المـرة، ونتعلـم مـن أخطائنـا، ونقـوم بالاختيـار الصحيـح.

تنهد «مصطفى» ثم قال:

- لم أعتـد منـك الاستسـلام يـا «هيثـم» ولـن أتقبلـه منـك الآن، مازالـت أمامنـا فرصـة لفهـم مـا حـدث، يجـب علينـا الاستماع إلى مبرراتـه، لم نبـذل قصـارى جهدنـا بعـد، دعنـا نعطيـه فرصتـه حتـى النهايـة وبعدهـا نفكـر في الخطـوة القادمـة.

ثم وجه كلامه لأحمد:

- أرجوك يا «أحمد» اتصل به واطلب منه أن يأتي إلى هنا حالاً.

اتصل به «أحمد» عدة مرات ولكن لا إجابة، ثم حاول مرة أخرى ولم يصل إلى نتيجة، حتى اتصل للمرة الأخيرة التي استجاب فيها «ماضي» ولكن بالرفض، لقد قام بإلغاء المكالمة.

شعر مصطفى بالغضب وسأل «أحمد» وقد عزم أمره:

- أنت تعرف عنوان بيته، أليس كذلك؟

أومأ «أحمد» بالإيجاب فوجه «مصطفى» كلامه لهم :

- حسناً، هيا بنا إلى هناك.

أطاعوه في طلبه دون اقتناع، ولكن لا مانع من فعل كل ما يجب عليهم فعله حتى لا يشعروا بالتقصير بعد ذلك.

- ٤ -

بدأ منزل «ماضي» - الذي يقطن به حالياً- بالظهور أمامه بعد تحطيمه للقلادة التي كان يرتديها، كان من الممكن أن يلقيها بجانب أي سلة مهملات ولكن هذه القلادة أثارت حفيظته بحق فلم يشعر بالراحة إلا بعد أن حطمها، ولكنه لم يستطع إزالة كل المستحضرات التي غطت وجهه، فدخل إلى منزله واتجه إلى دورة المياة لإزالة ما تبقى منها. أمسك بقطنة مبللة بالماء والصابون وبدأ في مسح وجهه وهو ينظر إلى المرآة المعلقة أمامه ويتأمل تفاصيله، ومع كل حركة من يده تظهر الخطوط والتجاعيد التي حفرت في وجهه ورقبته عبر الزمن، هذه الخطوط التي تحمل في طياتها ذكرياته وماضيه وكل ما عاشه من فرح، حزن، يأس أو أمل .. كان يكرهها سابقاً ولا يحب أن يراها ولكنها اليوم أحب ما يكون إلى قلبه، فكما كانت تحمل الحزن والندم سابقاً، هي الآن البرهان والدليل على أنه

صحح أخطاءه وعاش الحياة التي كان يتمناها، فهو اليوم لم يتقبل وجودها فقط، بل كان يفتقدها أيضاً. هذه الخطوط العميقة هي ذاته وما يميزه، هذه التجاعيد هي الدليل على أنه عاش حياة مديدة مليئة بالأحداث، باختصار هي الدليل على أنه حي، كان قد أشرف على الانتهاء من إزالة ما تبقى على وجهه من مستحضرات، حين طرق أحدهم الباب، فأذن له بالدخول.. دخلت «سما» وقالت له:

- لقد تأخرت كثيراً ابنتك «مها» بالخارج و «فتحي» يسأل أين جدو وقد بدأ بالبكاء ولا نستطيع إسكاته، أرجوك تعال وتصرف معه أنت فهو لا يطيع أحداً غيرك.

نظر لها في حنان ووعدها بأنه سيأتي فوراً، عند خروجه من المرحاض دق جرس باب المنزل فأمر الخادم أن يرى من هنالك.

فتح الخادم الباب - كما أمره «ماضي»- فوجد أمامه «مصطفى»و «أحمد» و «هيثم» والغضب ظاهر على وجوههم، حينما وقعت عين «أحمد» على «ماضي»، الذي كان يقف قرب الباب صاح به:

- هـل جننـت يـا «مـاضي»!! مـا هـذا الـذي فعلتـه يـا أحمـق؟ هـل هـذا هـو حقـاً رد الجميـل للأشـخاص الذيـن حاولـوا مسـاعدتك؟!

رد «ماضي» في انزعاج:

- أرجـوك اخفـض صوتـك مـن فضلـك لا أريـد شـوشرة، أرجوكـم تفضلـوا معـي إلى غرفـة المكتـب وسـوف أجيـب عـن كل أسـئلتكم، ولكـن مـن فضلكـم بعـد انتهـاء هـذه الجلسـة اتركـوني في حـال سـبيلي فـلا أريـد أي شـئ يذكـرني بالمـاضي.

حـاول «أحمـد» تمالـك أعصابـه و اتجهـوا جميعـاً إلى الغرفـة المقصـودة، سـألهم «ماضي» من واجـب الضيافـة إذا كان أحدهم يريـد شـيئاً ليشربـه، ولكـن بـدا عليهـم عـدم الاسـتعداد لأي مـن هـذه المقدمـات التـي لا داعـي لهـا، عـدا «هيثـم» الـذي طلـب كوبـا مـن الشـاي الأخـضر. حـاول «أحمـد» الـكلام فأوقفـه «مصطفـى» بحركـة مـن يـده، فأومـأ «أحمـد» برأسـه متفهـماً.

فقال «مصطفى» لماضي:

- بـدون مقدمـات أرجـوك، مـن فضلـك وضـح لنـا مـاذا فعلـت منـذ بدايـة يومـك، فـما رأيناه حتـى الآن كان مخيباً للآمـال ونحـن بانتظـار مـبررات هـذه الأفعـال الغريبـة الصـادرة منـك.

قال لهم «ماضي»:

- سـوف أحكـي لكـم كل شـئ ولكـن لا تقاطعـوني مـن فضلكـم حتـى ننتهـي مـن هـذه الجلسـة سريعـاً.

***

«هل جربت يوما هذا الإحســـاس اللذيذ عندما تشعر بســـعادة عارمة، فتحب ما كنت تكره ســـابقا وتتقبل ما كان يزعجك؟

أو عندما يحدث بينك وبين أحدهم مشـــادة أو خلاف شديد ينتج عنه مقت ونفور من جانبك، ولكن مع مرور الأيام أو حتى السنين تفتقد هذا الشخص وتشعر بالحنين إليه، فيبقى السؤال هنا: أين ذهبت الكراهية والنفور؟

دعني أقول لك الإجابة: « ذهبت في طي النسيان».

يعتبر النســـيان - من وجهة نظـــري - وجهاً من وجوه الحقيقة، فهـــو يزيل عنك التفاصيـــل الصغيرة المربكة فتســـتطيع وقتها أن ترى حقيقة الأشـــياء جلية»

النهاية

منذ أن علمت بحقيقة هذه التجربة، بدأت في وضع خطة ليومي وكيف سوف أمضيه، وكما قلت للدكتور «أحمد» سابقاً إنني أشعر بالندم الشديد لأنني لم أستطع حضور جنازة والدي، ولكن بعد تفكير وجدت أن حضور الجنازة لم يكن هو ما يحزنني حقاً إنما عدم وجودي بجانب أبي وأهلي، وكيف أنني لم أمض ولا يوماً معهم أستمع لهم وأستمتع معهم، لذلك طلبت منكم أن أرجع عدة سنوات قبل الجنازة وقد صادف أن يوم خضوعي للتجربة هو أيضاً يوم لا ينسى في تاريخ عائلتي، لقد كان آخر يوم استطاع فيه أبي الخروج من المنزل، فمنذ أن أصيب بالمرض وهو لا يخرج كثيراً، سافر مرة واحدة لقضاء فريضة الحج وبعدها تدهورت حالته مرة أخرى، ولكن بعدها بفترة تحسنت صحته نوعاً ما وطلبوا مني أن أرافقهم في يوم نقضيه معاً كعائلة من باب الترفيه عن أبي

«الحـاج»، كـما نطلـق عليـه مـن بعـد عودتـه مـن مكـة، ولكـن كـما هـو متوقـع، فضلـت الذهـاب إلى العمـل عـلى الذهـاب معهـم، فقـد كنـت عـلى مشـارف ترقيـة - كـما تعلـم - وأردت تـرك انطبـاع حميـد لـدى مديـري، ولكـن مـع الأسـف لم أكـن أعلـم أن هـذه سـتكون آخـر نزهـة تمضيهـا العائلـة معـاً، فقـد تدهـورت حالـة والـدي بعـد ذلـك ولم يعـد يخـرج مـن المنـزل إلا للـضرورة القصـوى أو مـن أجـل زيـارة الطبيـب؛ لذلـك كما تـرى قـررت مشـاركتهم هـذا اليـوم، في هـذا الوقـت كان أبي «الحـاج» يتـصرف كطفـلٍ صغـير، كل مـا كان يتمنـاه هـو تنـاول وجبـة دسـمة والذهـاب إلى الملاهـي وكأنـه يريـد أن يثبـت لنفسـه أنـه مـازال حيـاً، كان سـعيداً بهـذه النزهـة وبتلبيتنـا جميع طلباتـه دون مناقشـة أو جـدال، فلـم تعـترض أمـي يومهـا عـلى الوجبـة الدسـمة كـما تفعـل معـه دائـماً، أو تمنعـه مـن الحركـة خوفـاً عـلى صحتـه، فقـد كان حـراً يفعـل مـا يريـد ويطلـب مـا يريـد، وكنـت أنـا سـعيدا لفرحـه وسـعادته، وقـد شـعرت بالرضـا في هـذا اليـوم، لقـد وجـدت مـا كنـت أتمنـاه حقـاً ومـا يريـح ضميـري، وهـو أن أكـون فـردا مـن هـذه العائلـة.. أن أشـعر بحبهـم ويشـعرون بحبـي فقـط، وهـذا مـا حـدث.

بعد ذلك قررت الذهاب إلى المصنع ومصارحة «سما» بمشاعري .. لم أكن أعلم ما عليّ فعله بالضبط، حاولت ترتيب الكلمات لمرات عديدة، ولكنني كنت أفشل في كل مرة، فلم أجد بُداً من التعبير عما بداخلي دون ترتيب، وليحدث ما يحدث، ولكن كنت أريد التحدث لصديقي «فتحي»، كنت أريد أن أخبره كم أحبه هو أيضاً، وكم تعني لي صداقتنا ولكن للأسف لم أجده، لم أضع هذا الموقف في الحسبان، حزنت بشدة لعدم وجوده فهذه فرصة لن تعوض كما تعلم، لذلك بدأت التفكير في حل لهذا الموقف حتى راودتني فكرة عبقرية، كنت أعرف أن مكتبي القديم سوف يصبح مكتب «فتحي» بعد ترقيتي، فقررت ترك رسالة له في درج المكتب أوضحت بها كل شئ وأخبرته أن يسامحني إذا حدث وفعلت أي شئ يضايقه الآن أو في المستقبل وشكرته على وقوفه بجانبي كل هذه السنوات، وأخبرته أنه سبب رئيسي في نجاحي ولولا وجوده لما استطعت تحقيق شئ مما حققت وما سأحقق، واقترحت عليه أن نذهب معاً لتعلم الكمان وأن يحثني على ذلك ولا يقبل رفضي إذا حاولت التملص، لقد قلت كل شئ له وهذا أقل ما يقال، وقد شعرت بالرضا لهذا أيضاً، بعد انتهائي من كتابة هذا الخطاب هدأ بالي قليلاً،

وأزحت جزءًا كبيراً من الهم الذي كان يثقل كاهلي، فاستجمعت كل قوتي وتجرأت وطلبت من «سما» أن تأتي معي، لم أشعر بما فعلته ولكنني أعتقد أني جذبتها بشدة من يديها وخرجت بها من المكتب، فلم أكن أريد تركها، لم أكن أريد أن تضيع مني بعد الآن، وإن كان الأمر بيدي لما تركت يدها أبداً، ولكن خشيت أن تظن بي الجنون.. اعترفت لها بما أشعر به وسعدت لتقبلها كلامي ومشاعري وتفاجأت أنها كانت تنتظره، كنت أعلم أنها تشعر بي، ولكن لم أظن أنني مفضوح هكذا، كدت أطير من الفرحة عندما وافقت على الزواج، والحقيقة .. لم أتوقع أن تشعرني موافقتها بهذا الكم من السعادة، فما أغلى المشاعر وأثمنها وما أحقر المادة وأوهامها!! وكما ترى فوجود «سما» في حياتي واهتمامي بعائلتي لم يضر حياتي المهنية كما كنت أتوقع، فأنا مازالت أمتلك المنزل الفخم نفسه والخدم أنفسهم، ولكن بالإضافة للسعادة وراحة البال التي كانت تنقصني، كم كنت عمياً عن السعادة الحقيقية!! ولذلك تجدني لم أستطع الانتظار، فبعد أن تركتني «سما» وحيداً في الكافتيريا، شعرت أنني يتيم قد فقد أمه التي كان يتمنى وجودها، مع أنه يعلم استحالة الفكرة، ولكنه وجدها بالفعل ثم رحلت عنه مرة أخرى، فقررت أن أنهي كل

هـذا كـي أجـد «سـما» أمامـي مـن جديـد، فلـم أسـتطع البعـد عنهـا أكثـر مـن ذلـك؛ وهـذا سـبب إزالتـي للمسـتحضرات وتخلـصي مـن القـلادة قبـل انتهـاء اليـوم، فأنـا الآن راضٍ ولا أريـد أن أضيـع مـا تبقـى مـن عمـري هبـاءً، أريـد أن أعيـش كل دقيقـة مـن عمـري وأسـتمتع بهـا، بـل كل لحظـة لا دقيقـة، حتـى إن لم يبـق أمامـي في هـذه الدنيـا إلا سـاعة واحـدة، سـأحاول الاسـتمتاع بهـا وعيشـها كـما يجـب أن يكـون، الآن بعـد أن فهمـت حقيقـة هـذه الحيـاة وعلمـت حقـارة الأوهـام التـي كنـت أسـعى إليهـا.. الآن أنـا أعـرف أيـن يجـب أن يُبـذل المجهـود الحقيقـي، سـوف أبحث عـن عائلـة «فتحـي» وأولاده، بالتأكيـد قـد تزوجـت بناتـه الآن وأصبـح لديـه أحفـاد، أعلـم أننـي لم أسـتطع منـع موتـه وأنـا أتقبـل هـذا، فقـد كان هـذا عمـره الـذي كتبـه لـه الله، ولكـن عـلى الأقـل لم أكـن أنـا سـببه، لم يمـت «فتحـي» وبينـي وبينـه ضغينـة، سـأبحث عـن أختـي وعائلتهـا، سـنعيش سـوياً في سـعادة كعائلـة واحـدة مترابطـة، نحـن كبـشر شـديدو الغرابـة حقـاً نبحـث عـن وظيفـة مـن أجـل أسرنـا، أو عـلى الأقـل مـن أجـل حياتنـا نحـن شـخصياً، ثـم مـع الوقـت نبـدأ في نسـيان أو تنـاسي الهـدف الأسـاسي مـن هـذه الوظيفـة، ونبـدأ في ملاحقـة الأوهـام، فتصبـح الأمـوال أهـم مـن الأسرة، والترقيـة أو المنصـب أهـم مـن الحيـاة نفسـها؛

فنورط بعضنا البعض في المصائب حتى نترقى لمرتبة أعلى، أو حتى نأخذ مكافأة مالية على حساب الآخرين.الإنسان يقتل وينهب ويرتشي من أجل المال، يتنازل عن أخلاقه و أهله وأصدقائه من أجل المال، ولكن عندما يمر بأزمة أو وعكة صحية فإنه لن يجد حوله إلا الأصدقاء الحقيقين وأسرته، لن تنفعه الأموال أو المناصب، ومع أن أغلبنا يعرف هذه الحقيقة، لكننا لا نتعلم أبداً، مثلما نعلم أن ظلم البشر وقهرهم خطأ وأنه إذا سُلط علينا فيروس صغير لن تنفعنا قوتنا ، وسنكون لا حول لنا ولا قوة، ومع ذلك نستغل سلطتنا على البشر أسوأ استغلال، ندرك أننا سنموت يوماً ما لا مفر، ومع ذلك نعيث في الأرض فساداً ولا نبالي، لقد كنت أحد هؤلاء لا أستثنى نفسي، ولكنني تعلمت الدرس وعرفت الحقيقة، والآن أنتم تعرفون كل شئ، أستميحكم عذراً أن تذهبوا فزوجتي وابنتي تنتظران في الخارج، وحفيدي «فتحي» يبكي منذ مدة لغيابي، وكما قلت لكم فأنا أريد أن أستمتع بكل لحظة ينعم الله بها علي، لذلك أنا مضطر لإنهاء المقابلة.

أنهى «ماضي» كلامه واتجه صوب باب الغرفة ليغادر، أوقفه «مصطفى» وطلب منه أن ينتظر وقال له :

- انتظر يا «ماضي» إلى أين أنت ذاهب ؟ «سما» من التي تنتظرك وابنتك من؟!! أنا لا أفهم شيئاً.

أجابه «ماضي» متعجباً :

- كما قلت لك، «سما» زوجتي و«مها» ابنتي و«فتحي» حفيدي .. أين الغموض في كلامي؟!!

فغر «هيثم» فاه، وتصلب «أحمد» في مكانه، وتوتر «مصطفى» من هذه الكلمات والثقة التي يتحدث بها «ماضي»، لم يتوقع أحدهم هذا التطور ولم يكن في الحسبان.

تردد «مصطفى» قليلاً وقال لماضي بصوت خفيض بعض الشئ :

- «ماضي» .. لا يوجد أحد بالخارج.

بدأ «ماضي» يشعر بالملل فلا يوجد لديه وقت لهذا المزاح، وقد شعر بالندم لموافقته على التحدث إليهم من الأساس فقال بنفاد صبر:

- أرجوك يا دكتور كفى مزاحاً، فكما قلت لك لا يوجد لدي وقت لهذا الكلام، لقد بدأت أشعر بالغضب والملل بالفعل.

رد «مصطفى» قائلاً:

- أنا لا أمزح يا «ماضي»، بل هذه هي الحقيقة، هذا ما أتينا إلى هنا كي نصارحك به، فكل ما حدث لك كان من وحي خيالك .. مجرد أوهام.

بدأ الاضطراب يظهر على ملامح «ماضي»، فهو لا يصدق ما يقوله «مصطفى» فقال في غضب :

- أنت تكذب، هل هذه حيلة أخرى من حيلك يا دكتور؟ ليكن بعلمك أنا لن أشارك في أية تجارب أخرى، فقد كانت «سما» معي منذ قليل، وهي من أبلغتني بوجود ابنتي وحفيدي وقد رأيتها بعيني هذه فكيف تقول لي لا يوجد أحد؟!

أنهى «ماضي» كلامه واتجه ركضاً لغرفة المعيشة، فركض خلفه «مصطفى» ومن معه وأخذ «ماضي» يشير نحو كرسي المعيشة الفارغ ويحدثهم دون النظر إلى الكرسي فيصرخ في وجوههم في هيستيريا:

- سما هنا ... انظروا بأنفسكم.

نظرات الصمت تكسوها بعض الشفقة في عيون مصطفى ورفاقه، يلتفت «ماضي» نحو الكرسي ليتأكد من

صحة مزاعمه، فكانت المفاجأة بانتظاره، قد كان الكرسي فارغاً تماماً، وقف للحظات ينظر حوله ولكنه لم يستسلم، ركض في كل أنحاء المنزل يبحث عن «سما»، وهو ينادي عليها، ولكن كان الإحباط يقابله في كل غرفة يدخلها لا «سما»..شعر بالوهن بعد مدة ووقف لالتقاط أنفاسه وانهار في بكاءٍ شديد وهو مازال ينادي على «سما» بصوتٍ خفيض لا يكاد يسمع، وكأن أحباله الصوتية شعرت بالإحباط هي الأخرى، فخرج الصوت خفيضا متقطعاً، أوقفه «مصطفى» وطلب منه الهدوء ولكن «ماضي» كان بعالم آخر لا يشعر بوجودهم حوله، بل شعر أن الغرفة تضيق فتضيق معها أنفاسه، وكاد يغمى عليه .. حاولوا إسعافه وأجلسوه على كرسي في ركن الغرفة حتى يهدأ قليلاً.

قال له «مصطفى» بعد أن تحسنت حالته نسبياً:

- أنا لم أتوقع أن تصدق الأمر إلى هذا الحد، أنا أشعر بالأسف لقولي هذا، ولكن كل هذا كان إيحاء وقمنا بتهيئتك وزراعة الفكرة في رأسك، وفي كل جلسه كنت تحضرها مع «أحمد» كنا نقنعك بالفكرة أكثر حتى أصبحت جاهزاً، ولكن لم نتوقع أن تصدق الهلاوس

والأوهام إلى هذا الحد.

كان «ماضي» يستمع له ولم يرد ولا حتى كلف نفسه بالنظر إليه، ومع كل كلمة تخرج من فم «مصطفى» كانت تتجلى نظرة الانكسار والحسرة في عين «ماضي» ، فسارع «أحمد» بالقول ولم يعبأ بمعاناة «ماضي» أو لم ينتبه لها من الأصل:

- لقد وقع عليك الاختيار منذ اللحظة الأولى التي دخلت فيها إلى المكتب، وقد راهنا على أنك حصاننا الرابح حينئذ، أما سبب تأخرنا في الرد عليك، فكان لجمع أكبر قدر من المعلومات عنك وعن حياتك، وقد تطلب هذا وقتاً أكثر من المتوقع، ولكن مع كل معلومة جديدة كنا نعرفها عنك كان أملنا يزداد في نجاح التجربة على يدك أكثر.

بعد أن أنهى «أحمد» كلامه تدخل «هيثم» قائلاً :

- الإيحاء أو الإيهام يتطلب استعداداً كاملاً من المريض وهذا الاستعداد أهم من مهارة الطبيب نفسه؛ لذلك أمهر الأطباء لا يمكنهم النجاح مع مريض غير مستعد، وأنت كنت مستعداً أكثر مما ينبغي وظهر ذلك عندما قمنا بإطلاعك على تفاصيل الأبحاث

التي أجريناها، بالمناسبة أنا و أحمد مساعدان للدكتور «مصطفى» وهو الذي يشرف على أبحاث الدكتوراة الخاصة بنا، فلا يوجد بيننا عالم فيزياء أو عالم كيمياء، وحتى مستحضرات التجميل فقد تعلمها «أحمد» خصيصاً من أجل هذه التجربة، قبل ذلك الوقت لم يكن يفقه شيئاً عنها، وطبعاً كل الأبحاث التي تحدثنا عنها لا وجود لها وقد قمنا باختراع وجودها كي تبدو فكرتنا منطقية بالنسبة لك ويزيد تصديقك لنا، فكنا على علم أنك مهندس ناجح وبالتأكيد تميل إلى التفكير التحليلي والمنطقي وقد خاطبنا هذا فيك، ولكن مع هذا القدر من الذكاء والفطنة، أنت لم تنتبه إلى أن هذه الأبحاث المهمة التي ستغير العالم لم تستغرق أكثر من ثلاث سنوات من البحث والعمل، وهذا شئ غير واقعي على الإطلاق، ولكنك صدقته لأنك تريد أن تصدقه، وكان تجاهلك لهذه النقطة عن غير قصد، ما نراهن نحن عليه، إما أن نكمل التجربة في حالة عدم ملاحظتك لها أو إيقاف كل شئ في حالة تفكيرك بها وعدم تصديقك لها، فالعين ترى ما تريد أن تراه، والأذن أيضاً تسمع ما تريد أن تسمعه، والعقل يتجاهل ما يريد أن يتجاهله، وعقلك الباطن الذي كان يدرك

مـدى أهميـة هـذه التجربـة بالنسـبة لـك قـرر أن يتغـاضى عـن هـذه المعلومـة غـير المنطقيـة حتـى تكمـل مـا بـدأت.

نظـر «مـاضي» لهيثـم ولم يعلـق كأنـه لم يسـمعه ثـم قـال لهـم في لـوم:

- لمـاذا أنـا، ألم يكفكـم مـا أشـعر بـه! ألم يكفكـم النـدم الـذي يثقـل كاهـلي؟!! أنتـم لسـتم بـشرا فـلا يوجـد في قلوبكـم رحمـة فأنـا رجـل كبـير لا أحتمـل ولكنكـم لم تحترمـوا هـذا.

رد عليه «أحمد» :

- مـن أجـل الأهـداف السـامية وخدمـة البشريـة يجـب أن نقوم ببعـض التضحيـات يـا سـيد «مـاضي» وعليـك أن تتقبـل هـذا، فأنـت سـاهمت في معرفـة مكنونـات نفـس الإنسـان أكثـر وهـذا سـيفيد الباحثـين في العديد مـن المجـالات، وأما عـن سـبب اختيارنـا لـك أنـت بالـذات فهـذا سـؤال بسـيط إجابتـه أبسـط، فقـد لفـت انتباهـي منـذ اللحظـة الأولى ملابسـك الرثـة التـي تفتقـر إلى الـذوق فتوقعت عـدم وجود امـرأة في حياتـك وبعـد جمـع المعلومـات عنـك ومعرفـة كـم تملـك مـن أمـوال اسـتنبطت أنـك شـخص لا يعـرف كيـف يسـتمتع بالحيـاة، ولا كيفيـة الاسـتمتاع بـما يملـك وهـذا لا يحـدث إلا عندمـا يزهـد الشـخص في الحيـاة، أو

تفقد معناها بالنسبة له والاستنتاج الأول كان بعيداً من وجهة نظري؛ لأنه لم يبد عليك أي مظهر من مظاهر التدين فراهنت على الاحتمال الثاني وكسبت الرهان.

قال له «ماضي» بنبرة متوسلة:

- ولكنك وعدتني بفرصة ثانية يا «أحمد»، أنت قلت لي هذا .. ألا تتذكر؟ لقد قلت لي إنه بإمكاني إصلاح كل شيء أليس كذلك؟! أين هي الفرصة الثانية يا أحمد أين هي ؟ قل لي أرجوك.

أجاب «أحمد» بأسى هذه المرة:

- للأسف يا ماضي لا يوجد فرص ثانية، لقد منحك الله فرصتك كاملة ولكنك أسأت الاختيار مع أنك كنت تعلم في كل لحظة أنها فرصتك الوحيدة، ولكنك لم تلق بالاً لهذا، ولا أنا ولا أي مخلوق بمقدوره إعطاؤك هذه الفرصة التي تبحث عنها، كان يجب عليك وضع هذا اليوم في حسبانك، كان يجب عليك وضع الشعور بالندم نصب عينيك قبل أي فعل تقوم به حتى لا تصل لهذا اليوم الذي تتمنى فيه فرصة ثانية، أقولها لك مرة أخرى مع كل أسف لا يوجد فرصة ثانية يا سيد «ماضي»

صمت «ماضي» للحظات وبعدها قام من مكانه كالملسوع وبدأ الركض في أنحاء المنزل مجدداً وهو ينادي على «سما»، ولكن كالعادة «سما» لا تجيب.

***

«لو أني أعرف أن البحر عميق جداً ما أبحرت
لو أني أعرف خاتمتي ماكنت بدأت»

تمت